

المكتبة الثقافية

٤٨٧

الفلسفة المصرية شروط التأسيس

عمرت وقرني



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

الإخراج الفني : عمر حماد على

مقدمة

كل فكر مصرى هو بالضرورة ، من جانب أو آخر ، على مستوى أو آخر ، فكر للثقافة الجديدة ، ثقافة المتكلمين بالضاد من المحيط الى الخليج ، لأنه أولا مكتوب باللغة العربية ، وكل ما هو مكتوب بها أصلا موجه لكل أصحابها والمتكلمين بها جميعا ان بالقصد المباشر أو غير المباشر ، ولأنه ، ثانيا ، أى فكر مصرى ، تعبير عن مصر ، ومصر قائمة فى قلب عالم تلك الثقافة الجديدة التى هى بسبيل التشكل وبسبيل البحث عن هويتها ، ومصر قد اختارت ، ارادة وواقعا ، فى عصرها الحديث ، وعلى نموذج عصورها الاسلامية ، أن تكون على ارتباط عضوى حميم بالتجمعات البشرية المحيطة بها والداخلة معها فى

اطار ثقافى موحد ، كان الاسلام بالأمس ، وهو اليوم ارادة العيش المشترك فى ثقافة مشتركة من أجل مصالح حيوية جماعية . من هاتين الناحيتين ، فان كل فكر مصرى هو فكر للثقافة الجديدة النامية بلغة الضاد .

ولكن مصر ، أيضا ، « ذات » ، وذات عظيمة فريدة ، لها أقدم حياة وأسبق تاريخ ممتد بين الكيانات والتجمعات البشرية القائمة على ظهر الأرض اليوم ، وأهل مصر، على مر الزمان ، اشد الناس تمسكا بمصرهم وبأرضهم ، ومحبة لهما وحرصاً عليهما ، حتى وان عاشوا على أرضهم حياة ضنكا كما حدث فى العقدين الاخيرين ، وهم يتمنون دواما ، ومنذ جدنا سنوحى وقبله ، ألا يفوتهم حظ العودة اليها ان ابعدهم طرق الحياة عنها ، وليس من أمنية حميمة فى قلب كل واحد منهم الدق ولا أثبت من أن يموت عليها وأن يدفن فى ترابها . فمن الطبيعى اذن أن يكون هناك فكر مصرى يكون لمصر أولا . أضف الى ذلك خصائص وضع مصر من شتى الجوانب ، وفيه ما هو مميزات وفيه ما ليس كذلك ، بحيث ان هناك مشكلات مصرية نوعية تختص بها مصر ، ولا توجد عند اخواننا فى المغرب أو اليمن أو سوريا أو غيرها ، وهى تقوم الى جوار مشكلات عامة تجابه مجمل مجموعة الثقافة الجديدة .

ذلك هو جدل الخاص والعام . فمن يطلب الى مصر الا تفكر فى ذاتها ولنفسها حائد عن جادة الصواب والحق ،

ويظن انه كاتم لأنفاس الذاتية وهيئات له ذلك ، ومن يطلب الى مصر ألا تفكر الا لذاتها مخطيء لا يدرك الوقائع والضرورات ، ولا يراعى مصالح مصر الحيوية وواجباتها . والموقف السليم هو الجمع بين الذاتية والمشاركة ، بين الخاص والعام . وهو ، على كل حال ، موقف تفرضه الحياة الانسانية ذاتها : فانظر الى نفسك تجدك مجبرا على رعاية شئونك من حيث أنت فرد محدد ذو هوية وتاريخ وخصائص (وهل من يجوع لك أو يرتوى ؟ أو يتألم بدلا عنك ؟) ، وذلك في نفس الوقت الذي ترعى فيه شئون أسرتك المباشرة بالمعنى الضيق ، فانت أنت وانت كذلك عضو في أسرة ، ثم في جماعة أعم وجماعات . وسوف يجد القارئ في هذا الكتاب مصداق هذا الموقف المتوسط بين التفريط في انكار الذات والافراط في اثباتها ، ففيه مما هو مصرى نوعا (وبعضه سيوجه اليه المؤلف أقسى سهام الانتقاد ، ويتمنى مخلصا ألا تعدى الجماعات الشقيقة بمثل ما استحق هذا الانتقاد) ، وفيه ما هو عام ومشترك، بين مجمل أوضاع الثقافة العربية الجديدة .

ان هذا الكتاب ، في جوهره ، دعوة الى الابداع التأسيسي : من ابداع فلسفة جديدة ، الى ابداع مجتمع جديد الى ابداع ثقافة جديدة ، الى ابداع توجه جديد نحو الانسانية والعالمية الحقتين . وهو أيضا ، ولنفس الأسباب ، تنبيه وتحذير من الاستمرار في طريق فناء

الذاتية ، بالوقوع تحت العجالات الحديدية التي لا ترحم
لدعوى العالمية الغربية الزائفة ، وتنبية وتحذير من الضياع
المساوي عملا للفناء ، بالتيه في فراغ نزعة ماضوية
سانجة تفتقر الى الحس لتاريخي . واذا أنت جمعت بين
هذين الموقفين معا ، قلت ان هذا الكتاب دعوة الى لتوجه
الى الوجود مباشرة بغير وسيط ، وأنه من ثم دعوة الى
الجسارة المتمكنة الرشيدة .

ان هذا الكتاب بيان وعلان ودعوة ، فهو يشير الى
اتجاه الطريق ، ولكنه لا يفصل (بل ولا يملك مؤلفه)
وصف ذلك الطريق ، وهو يشير الى الأخطار ، ولكنه
لا يستطيع ، بحكم حيزه ووظيفته ، أن يسهب القول فيها .
انه ، في الحق ، تمهيد لكل فلسفة مصرية مستقبلية ،
وبالتالى فانه تأسيس جزئى للبناء المقترح للثقافة العربية
الجديدة ، وللأمة الجديدة التي ستكون صاحبة تلك الثقافة
الجديدة . انه لا يحتوى على عرض لمضمون فلسفة جديدة ،
ولكنه يقدم ما نعتبره الموقف الاطارى الضرورى الوحيد
اللازم لاقامة أية فلسفة ، بل فلسفات ، جديدة حقة .

وليس هذا البيان وليد اليوم ، بل هو يعتمل أفكارا
منذ أكثر من ثلاثين عاما ، وأشـرنا الى بعض مواقفه
الجوهرية منذ عام ١٩٦٢ م . (انظر ص ٨٤ ، هامش ٢ ،
فيما يلى) ، وشرحنا بعض جوانبه فى لحظات سريعة فى

محاضراتنا بكلية الآداب بجامعة عين شمس ، حتى كان أول تحرير مبدئي لقضاياها الكبرى في دراسة أعدت في أوائل عام ١٩٨٣ م للكتاب التذكاري الموجه تحية من كلية الآداب بجامعة القاهرة الى الأستاذ الدكتور مصطفى سويف (لم تنشر بعد) . و صلب هذا البيان هو الدراسة المعنونة « الابداع الفلسفى وشروطه » ، والتي كانت قد أعدت للاصدار الخاص بـ « جماليات الابداع والتغير الثقافى » من مجلة « فصول » (المجلد السادس ، العدد الرابع ، سبتمبر ١٩٨٦ م) . وتليها دراستان أخريان تكملان بتفصيل أوسع بعض قضايا الدراسة الأولى ، حيث تعرض دراسة « أزمة الحضارة الغربية » لبعض طرائق توصيفها ولبعض جوانب التدايل عليها ، وهى تعتمد على محاضرة عامة ألقاها المؤلف فى الموسم الثقافى لكلية الآداب بجامعة الكويت ، فى اكتوبر ١٩٨٧ ، أما الدراسة الثالثة ، « اعادة اكتشاف الثقافة اليونانية فى الوعى المصرى الحديث » ، فانها قد يبدو وكأنها تتناول موضوعا هامشيا بل وأكاديميا ، ولكنها فى الواقع تنطلق ، ابتداء من هذا الموضوع ، لتجعلنا نضع أيدينا على صياغة محددة لسؤال : ما علاقتنا بالثقافة الغربية ومن ورائها الثقافة اليونانية ؟ وهى تقترح الاجابة المتناسبة مع خط مواقف الدراسة الأساسية الأولى . وهذه الدراسة الثالثة كانت موضوعا لمحاضرة فى المؤتمر الأول للجمعية المصرية

للدراسات اليونانية والرومانية ، والذي انعقد بالاسكندرية
فى ديسمبر ١٩٨٦ م .

ان هذا الكتاب اقترح بالحد الأدنى الاطارى لقيام
كل فلسفة مستقبلة لنا ، بل وقيام ذاتيتنا الجديدة . انه
دعوة الى إعادة التفكير بشأن كل شيء .

الابداع الفلسفى وشروطه نظرة الى المحاولات واستشراف للمستقبل

الابداع الفلسفى الذى نقصده هو الابداع الفلسفى فى مصر * وسوف نقدم أولا بحديث سريع عن الابداع ذاته ، ممهدين فيه لما سنتناوله بالتفصيل من بعد فلسفيا ومصريا ، ثم نعرض لمشكلة الابداع الفلسفى فى مصر والوضع الفلسفى فيها ، ثم نعرض لبعض محاولات الابداع بها وللفروض التى تطرحها هذه المحاولات ، ثم نخصص القسم الرابع لشروط قيام ابداع فلسفى مصرى على الحقيقة ، ونختم برؤيتنا للمستقبل لنجيب عن سؤال : ماذا نريد ؟

اولا : فى الابداع

١ (الماهية :

١ - ان ظاهرة الابداع اهم واجل من ان تترك للدراسة الحرفية السيكولوجية وحدها ، برغم اسهامات السيكولوجيين العظيمة فى هذا الميدان ، ومنها اسهام المدرسة المصرية بخاصة ، بقيادة الأستاذ الدكتور مصطفى سسويف . ذلك ان الابداع يخص فى الصميم كل الانتاج الثقافى ، بل كل النشاط الانسانى بعامة ، وهو فى الواقع الهدف الصريح أو الضمنى وراء انتاج الفلاسفة أو الفنانين أو العلماء أو الكتاب على تنوع ميادينهم . ولهذا فاننا لا نتردد هاهنا فى وضع بعض التحديدات ، والاشارة الى بعض العناصر التى نعدّها جوهرية فى ظاهرة الابداع .

٢ - يمكن ان نقول ان الابداع هو رؤية فى شكله الادراكى ، وهو مبادرة فى شكله النشاطى أو الفعلى أو العملى ، وجوهره من هذه الناحية أو تلك أنه تجديد ، فيمكن ان نقول ان الابداع رؤية ومبادرة وتجديد .

٣ - ولن نتوقف هنا عند المشهور بين العموم من ان الابداع هو ضرب من النعمة أو هو موهبة ، وما يقابل هذا وذاك من الاهتمام بالجهد وبالتدريب الى درجة وأخرى ، ولا عند المصطلحات التى تدور حول « الابداع » وتصاحب

الحديث عنه ، من مثل الذكاء والنبوغ والابتكار والاختراع والخلق والعبقرية ، وانما نريد أن نقصد مباشرة الى فكرة « الرؤية » . فالابداع رؤية بمعنيين ، أحدهما عام ، والآخر أضيق . فالابداع رؤية من حيث هو ادراك ، وهذا هو المعنى العام ، ولكنه على الأخص ادراك نافذ ، وهذا هو المعنى الضيق للرؤية الابداعية .

٤ - ومن حيث هو ادراك فانه فى المحل الأول ادراك للكل ، أى ادراك كلى لموقف ما ، أيا ما كان المجال . ويعنى هذا - أول ما يعنى - أن تكون هناك سيطرة على تفصيلات الموقف ، مع بروز الكل فى الوقت نفسه . ويكون الكل المقصود هنا هو « كل العلاقات » ، أى العلاقات بما هى مجموع متسق يكون « كلا » . وهو يعنى - ثانى ما يعنى - أن فعل الابداع بوصفه « رؤية » يتقدم على هيئة اعادة تنظيم لعناصر الموقف ، فلا يكفى ادراك الموقف والسيطرة على تفصيلاته وادماجها فى كل ، فالأهم من ذلك هو تعدى القائم واعادة تنظيم العناصر ، وهو ما يكون أبرز سمات الابداع على الاطلاق . بعبارة أخرى ان جوهر فعل الابداع هو اعادة تكوين الواقع ، وهو ما ينتهى الى تغيير النظرة الى الكون ، على أى معنى تفهم به كلمة « الكون » هذه .

٥ - قلنا ان الابداع رؤية بمعنى الادراك النافذ . وربما كان أول ملامح هذا النفاذ هو ما يمكن أن نسميه « بالشعور

بالبراءة ، ، أى كأن المبدع يدرك الموقف القديم لأول مرة
ليرفضه ، ويدركه بعد إعادة تنظيمه من جديد ليكون أول
المدركين له ، كأنه لم تكن له به من قبل خبرة . ومن هنا
يأتى معنى « البراءة » ، ويتصل بهذا الشعور بالبراءة
الشعور « بالطازجية » ، أى ببطانة شعورية مصاحبة لفعل
الادراك الجديد ، تقوم فى الوعى بالجدة . وبأن هذا
الادراك ، لأنه لم يسبقه مثيل ، « طازج » نضر ، ولا نملك
هنا غير التشبيهات .

٦ - ولكننا قد نقول ، مستخدمين هذه المرة لغة أكثر
دقة ، ان الادراك النافذ يعنى الرؤية « الجوهرية » للموقف ،
أى ادراكه فى جوهره ، بمعنى علاقاته وخصوصيته
ومغزاه معا ، فالابداع ليس مجرد ادراك جديد ، أى
مختلف ، بل هو ادراك جوهرى ، أو قل فى تعبير آخر ان
فعل الابداع يظهر بمظهر النفاذ لأنه ادراك للمنطق الذى
يحكم الظاهرة أو الموقف . ان الابداع بصيرة نافذة سلبا
وايجابا : السلب لأنها تحكم على الموقف القائم بالترك ،
وهو ما يعنى الادانة ، والايجاب لأنها تهيبء للمسستقبل
ممثلا فى موقف جديد ، وفى كلا المجالين يكون هناك تغيير
للنظرة الى الكون (وسنرى من بعد ان الابداع الفلسفى
الحق لا بد ان يحكم على التراث والموقف القائم وأن يقومهما
من جهة ، ليهجر هذا على نحو ما من الهجر ، وليتعدى
ذاك بالضرورة ، وليتجه فى نضارة النظرة الى تصور

نظام جديد من الأفكار • ونحن نستعمل كلمة نظام هنا فى
أعم معانيها وأكثرها أساسية) •

٧ - ان الابداع يؤدي فى الواقع الى كون جديد ،
سواء كنا فى ميدان العلم الطبيعى أو فى ميدان الفلسفة
أو ميدان الدين ، أو كنا نشير الى لوحة أو تأليف موسيقى
أو قصيدة شعر ، فكل من هذه المنتجات تكون « كونا » ،
كذلك ، وتدخل الفنان من جهة ، والمتذوق من جهة أخرى ،
فى « كون جديد » ليس هو الكون المعتاد • ومن هذه
الزاوية فان الابداع هو أيضا نظرة الى أمام ، وما أصعب
تعدى الواقع ! وما أندر القدرة على ادراك المختلف ! ومن
يقول « النظرة الى أمام » يقول اذن فى الآن نفسه « بتعدى
القائم والسابق » ، وكأن الابداع فرار من المألوف ،
و « اختراق بالخيال » الى عوالم جديدة جدة تامة (بالمعنى
النسبى لكلمة « تامة » فى معظم الحالات) • ولعل العناصر
التي أشرنا اليها أن تكون دليلا للتمييز بين الابداع
الشكلى ، أو المظهرى ، والابداع الحقيقى •

٨ - أخيرا فان مفهوم « الرؤية » يؤدي الى نتيجة
مهمة ، ألا وهى أن الابداع هو فعل شخصى دائما ، أى
يقوم به شخص بالضرورة ، وهذه هى القاعدة العامة ،
وليس عليها الا أندر الاستثناءات (مثل حالة الأخوين
جونكور فى الأدب الفرنسى فى القرن التاسع عشر
المبلادى) • ومع ذلك ، فان هذا « الشخص » ليس « فردا »

دائما فى كل الأحيان ، وهو فى ميادين الابداع ذات الطابع الاجتماعى بالضرورة ، من مثل الابداع الفلسفى والدينى والسياسى وماشابه ذلك ، يصبح أقرب مايكون الى « الشخص العام » ، ان أمكن استخدام هذا التعبير ، أى الفرد الذى لا يعبر عن نفسه الخاصة بقدر ما يعبر عن روح الجماعة التى ينتمى اليها (وسنؤكد من بعد أن الاطار الضرورى للابداع الفلسفى المصرى ينبغى أن يكون الوطنية) ، أو كأنه ، فى أحيان أخرى ، معبر عن استجابة شبه قهرية لمتطلبات منطق حركة الموقف الذى يوجد فيه .

٩ - تحدثنا فيما سبق عن الابداع من حيث هى رؤية ، أما عنه من حيث هو « مبادرة » ، فإن أول الكلام ينبغى أن يكون بالإشارة الى كون الفكر قصديا دائما . ولنفهم هذا القول هنا على أنه يعنى أن الفكر هو دائما استجابة لفعل من أجل الوصول الى هدف ما ، فلا وجود لفكر معلق فى الهواء ، أو فى الفراغ ، وإنما الفكر دائما يقصد الى معنى ما ، وإلى تحقيق غرض ما ، أو فلنقل ان الفكر يكون دائما فى موقف ، وغالبا ما يظهر الابداع ابتداء من موقف يتخذ هيئة المشكل أو الصعوبة التى لا بد من تعديها . والواقع أن « روح الاشكال » ، وهى ضرورية من حيث هى خلفية سلبية للابداع ، ونعنى بها الميل إلى ادراك المشكل فى الموقف ، لا تتوافر لدى الكثيرين ، لأن الميل الغالب هو الى قبول الموقف والتكيف معه بوصفه ضرورة

قد قضى بها ، وفى هذا بعض الراحة • ولكن المبدع رجل (أو امرأة) متاعب (والقلق هو من أخص المميزات الشخصية للمبدع) ، وليس من السهل فى كل الأحوال أن تتكون لدينا روح الاشكال ، خاصة فى ظل نظم تربوية ترسخ فى النفس الخضوع والخنوع ، وهو مايعنى فى النهاية « اللافعل » ، فى حين أن الابداع فى الحقيقة هو « الفعل » الأعظم والموسس لكل ماعداه • وليس أدل على هذه الواقعة ، أعنى ندرة روح الاشكال ، من أن الابداع فى بعض مظاهره ، هو « خروج عن الخط » خروجا ملحوظا ، أو هو - صراحة - معارضة للسلطة وإرادة لقلبها ليكون المبدع هو السلطة الجديدة أو مصدرها على الأقل • وطبق هذا على التجديد فى الشعر والموسيقى والتصوير والنحت ، أو طبقه على اخناتون وعيسى المسيح ، أو على الشيخ رفاعة الطهطاوى ومحمد على باشا ، فستجد تحقيقا لما نقول • ولعل أوضح موقفين فى تاريخ الابداع المصرى الحديث يشخصان هذه الفكرة هما موقف الشيخ محمد عبده من رجالات الأزهر فى عصره من جهة ، وموقف صلاح عبد الصبور وزملائه من عباس محمود العقاد من جهة أخرى (وقارن أيضا موقف العقاد نفسه وزميليه شكرى والمازنى من المدرسة الشعرية التى كانت مسيطرة أيام شبابهم) • ومادام الابداع يكون دائما فى موقف ، ومادام شرط ادراك الاشكال شرطا جوهريا لقيامه ، فانه « فعل » بالمعنى الدقيق ، ومادام فعلا لقلب الموقف (واعادة

تنظيم عناصره - كما أشرنا من قبل) ، وتأسيسا لسلطة ،
فانه اذن مبادرة • ان الابداع يبدأ دائما من الشعور
« بالحصار » ، وهو استجابة جوهريا تعدى الحصار ،
سواء كان ذلك بهدم أسس الموقف ، أو « بالقفز من السور » ،
أو بصورة أخرى ، وهو فى كل هذا فعل ومبادرة •

١٠ - وهناك مجموعة من صفات الابداع لا تفهم حق
فهمها الا فى ضوء مفهوم « المبادرة » ، كما أن هذا المفهوم
يعتمد عليها هو ذاته من جهة أخرى • هذه الصفات هى :
التأثير المباغت ، الأصالة ، المرونة ، الروح النقدية • ولن
نقفل فى هذه الصفات هنا •

١١ - واذا نحن جمعنا سمة المبادرة الى سمة الرؤية
النافذة لكل ، بدأ لنا الابداع على هيئة مشروع لتعبئة
الطاقات • والأمر كذلك ، سواء على مستوى الابداع الفنى
عند مصور أو موسيقى ، أو على مستوى الابداع الفلسفى
والسياسى والدينى • ومن هذه الزاوية للنظر يكون الابداع
وظيفة اجتماعية حضارية •

١٢ - قلنا ان الابداع رؤية ومبادرة وتجديد ، وكان
لابد من الاشارة الى التجديد فى ثنايا الحديث عن الرؤية
والمبادرة ، لأنه لا ابداع من غير التجديد والتجديد
الجوهري • والواقع أن المستوى الأول للتجديد هو الاتيان
« بالمختلف » ، وفى هذا الاطار نتحدث عن القديم والمعتمد

وفى مقابله عن المختلف والجديد . ولكن الابداع الحقيقى ، كما اشرنا ، هو التجديد الجوهرى ، أى التجديد من حيث هو اعادة تنظيم الموقف بما يؤدى الى رؤية جديدة للكُل ، أو للكون ، بما يعنى اقامة كون جديد . والواقع ان التجديد المقصود هو فى النهاية اقامة سلطة جديدة . وليس عجبا بعد ذلك أن يكون الابداع الحق قائدا دائما .

(ب) عوامل الابداع :

١٣ - لن نفصل هنا فى عوامل الابداع ، التى يمكن تقسيمها الى عوامل ذاتية ، أى تعود الى شخص المبدع ، وأخرى موضوعية ، أى مستقلة عن شخصه كثيرا أو قليلا ، وتدخل فيها العوامل البيئية ، كما يمكن تقسيمها تقسيمات أخرى ، من مثل العوامل الأصلية والعوامل الفرعية ، الى غير ذلك . ونشير هنا اشارات سريعة الى أهم تلك العوامل .

١٤ - ومن أهم العوامل الذاتية العامة : الوعى بالقدرة الابداعية عند المبدع (فليس هناك مبدع لا يعى أنه مبدع) ، والقدرة على التركيز ، وقوة الخيال ، الى حد توافر القدرة على « الحلم » الى أقصى درجة ، والثقة بالذات ، وتوتر الارادة ، والقدرة على الاستجابة التلقائية ، وما يمكن أن نسميه بارادة التفرد ، أو ارادة الأصالة - هذا كله ، الى جانب توافر حد أدنى من عامل الذكاء المرتفع . ومن

العوامل الذاتية التفصيلية : ما يسمى فى دقة أو فى غير دقة « بحب الاستطلاع » ، والرغبة فى الكشف ، وما يواكبه من روح الاشكال ، والميل الى اثاره التساؤلات ، وفوق هذا كله توافر أقصى قدر من الروح النقدية ، والقدرة على الاستجابات غير النمطية ، الى جوار ارادة الاستقلال والتميز فى التفكير . وأضف الى هذا كله عوامل من مثل القدرة على « النفس الطويل » ، وعلى « تجميع الذات » بازاء مشتتات الانتباه فى العالم الخارجى ، وعلى حسن وضع المشكلات والقضايا ، الى غير ذلك . وأخيرا فاننا نؤكد على الخصوص ، فى اطار العمليات الابداعية ، من دوافعية ومعرفية وارادية ، على تلك الارادية بوجه خاص ، والدوافعية من بعدها .

١٥ - أما العوامل الموضوعية ، فمنها ما هو أقرب الى المبدع وما هو أقرب الى البيئة ، ومن النوع الأول : توافر التدريب الكافى ، والاهتمام بنقطة البداية ، والنجاح فى عبور مراحل التأهل للابداع شموليا ، والقدرة على السيطرة على ما يمكن أن يسمى بتكنيكات الابداع . ومن النوع الثانى : توافر الظروف المهيئة والمناسبة للابداع ، وفى مقدمتها شرط الحرية ، وسيادة روح التسامح ، وتهيئة الفرصة للتفرغ الابداعى ، والتنظيم السياسى الاجتماعى ، القائم على التعددية بوجه خاص ، وتوافر المعلومات بسهولة ، وتحدد الهدف القومى العام الشاأخذ المهمة

الابداعية ، وتحدد الهوية الثقافية بشكل يوجه الطاقة
الابداعية على طريق واضح فعال ، الى غير ذلك .

(ج) الصعوبات :

١٦ - وعلى الرغم من ان امكان الابداع قائم دائما
من حيث هو امكان ، الا أنه اذا لم تتوافر له عوامل الابداع ،
وعلى الأخص اذا قامت دونه صعوبات قوية ، حتى في
حالة توافر العوامل ، فان فعل الابداع لن ينمو ويتطور ،
ولن يثمر . ونقصد بالصعوبات هنا العوائق أو المعوقات ،
وهي أحيانا ما تأخذ شكل « الحجب » . وهناك منها ما هو
موضوعي وما هو ذاتي ، وما هو عام وما هو خاص . ومن
المفهوم أن أمثال هذه التصنيفات لا يراد بها الا التقسيم
المصطنع لحصر عناصر الموضوع ، لأن المواقف الفعلية
أكثر تشابكا بكثير من التصنيفات المكتبية .

١٧ - ومن المعوقات الموضوعية العامة ، أي باطلاق ،
ضغط السلطات القائمة ، ومنها سلطة التراث أو النقل ،
والسلطة محافظة دائما ولا تشجع بسهولة على الابداع .
وأحد الشخصيات الأساسية للسلطة قوة الرأي العام .
وليس من السهل قيام حركة ابداعية في جانب من جوانب
الثقافة دون قيامها في جوانب أخرى ، بل في شتى جوانب
الثقافة مجتمعة ، فيمكن أن نقول ان الابداع « معد » (من
العدوى) . والابداع المنفرد غالبا ما تضعف مقاومته

وقدرته على الاستمرار . واذا قلبت معظم عوامل الابداع ونظرت اليها سلبا لظهرت على هيئة معوقات . ومن أظهرها طبيعة التنظيم السياسى الاجتماعى للحياة الثقافية ، وعدم وضوح الهوية الثقافية ، وغير ذلك . ومن المعوقات الموضوعية الخاصة بالموضع المصرى ، ضغوط الرأى العام وأسلطات بأشكالها ، وسيادة روح العبودية للسلطات القائمة بأنواعها ، والخطة ، الضمنية على الأقل ، لوأد الطليعة الابداعية ، ولاغراق الامكانيات الابداعية فى ضباب اللاشعور ، وفى التفصيلات الجزئية ، وأخيرا وليس آخرا سيادة سياسة التوجيه والارهاب من قوى عدة فى المجتمع ، تؤخذ مجتمعة وفى معظم المراحل . ولا تقل المعوقات الذاتية أهمية عن تلك الموضوعية ، وبعضها هو انعكاس لتلك الأخيرة على المستوى الشخصى . ومن ذلك قبول روح العبودية ، والتنازل عن استقلالية الفكر ، والنزول الى درك « الفكر الارتزاقى » ، وظاهرة الكف الذاتى أو الشلل الذاتى الذى يتلخص فى تصور حكم الرقيب ، أيا من كان ، قبل صدوره ، والخضوع له على الفور ، بما يند المبادرة ، ويقتل روح الاستقلال ، ويغذى رواقد روح العبودية ، ويشل الحركة التلقائية ، ويغل لسان الصدق .

١٨ - ونختتم هذا القسم التمهيدى عن الابداع بعامة بالحديث عن موضوع لم ينل حقه من الاهتمام فى اطار الدراسات التقليدية الا هامشيا ، ونقصد به « اتجاهات

الابداع « ، على أساس أن الابداع فعل يكتسب حركة ذاتية حين يتشكل قواما ملحوظا ، وتكون له اتجاهات هي له من حيث هو ، أى مستقلة عن شخص المبدع ، بل تفرض نفسها عليه فرضا ، ليصبح شخص المبدع مجرد منفذ لتطلباتها فى واقع الأمر . هذه الاتجاهات هي : الكلية الديناميكية ، الجذرية ، الأمد الطويل ، التعددية ، الحرية ، الجوهرية ، الهدفية .

١٩ - وينطبق على الابداع المبدأ المهم الذى تقسول صيغته : « الكل أو لا شىء » ، وهو ما نعبر عنه بصيغة « الكلية » مأخوذة بهذا المعنى ، فالابداع الحقيقى يمس الميدان كله بالضرورة ، فلا تتصور شاعرا مبدعا حيننا ومقلدا أحيانا ، أو فيلسوفا مبدعا فى جانب وتابعا فى جوانب ، ولا مجتمعا خالقا فى ميدان وتابعا لآسياد فى ميادين . ولاشك أن التطبيق الواضح لهذا المبدأ يظهر على الأخص فى مجال الابداع الثقافى ، فالثقافات المبدعة ، وليست كل الثقافات مبدعة (راجع الثقافة الكورية وتلك اليابانية التقليديتين بازاء سيادة الثقافة الصينية) ، يظهر ابداعها ، أى أصالتها وتفردتها ، فى مختلف ميادينها ، من لغة ودين وأخلاق وسياسة وفن (راجع حالة الثقافة المصرية القديمة) . ذلك بأن الابداع هو تعبير شمولى عن الذات المتفردة . وفى هذا الضوء يظهر بعض معنى ماقلناه من قبل عن أن الابداع الحق هو مشروع لتعبئة الطاقات

ولنا أن نضيف أن الابداع الحضارى المصرى الجديد بوصفه قلبا لحركة الابداع فى اطار عالم الشعوب المتكلمة بالعربية وشعوب أفريقيا وآسيا ، أو أحد مراكزها الكبرى على الأقل ، ينبغى أن يضع هدفا له ، هو خلق طراز جديد من البشر .

٢٠ - وإذا ما تأمل القارئ فى متضمنات حديثنا عن الابداع بوصفه « رؤية نافذة » ، لوجد من بينها خاصية « الديناميكية » ، فالادراك والتغيير والتجديد والتحويل والخلق ، كلها تعنى الحركة الجوهرية الدائبة التصدية المنظمة . فإذا أضفنا الى هذا جميعه أن الابداع رفض وقبول ، نتج لك أن الابداع ديناميكى بالضرورة . ويعنى هذا - ضمن مايعنى - أن فعل الابداع ، ما أن ينطلق حتى يستقل نوعا من الاستقلال عن صاحبه ، أو منفذه ، ليكون ذا حركة ذاتية الى حد ما ، أى أنه يتحرك بذاته (مالم تقم فى سبيله عوامل سلبية محطمة) . وينتج أيضا عن خاصية الديناميكية أن الابداع « لا يلتئم طرفا دائرته » الا ببلوغ غايته ، أى بوصول حركته الى مستقرها .

٢١ - و « الجذرية » هى وجه آخر من وجوه « الكلية » ، والعلاقة بينهما كعلاقة « المفهوم » « بالمصدق » منطقيا ، وهى تعنى أن الابداع الحق لا بد أن يمس الأصول ، وهو ما يسمح لنا بالتمييز بين الابداع الحقيقى وذلك الظاهرى ، أو - على الأقل - الهامشى . ويبدو أن من مظاهر هذه

الجزرية ما يمكن تسميته «بالتأثير المبالغت» للابداع .
فمصدر المبالغة هو أن الابداع الحقيقي يقلب الأمور كلها
رأسا على عقب ليعيد تنظيمها من جديد . ومن هنا تكون
المفاجأة ويكون الاندهاش . وكما سبق أن قلنا من قبل فان
الابداع الحقيقي قلب للسلطة وتأسيس لكون جديد .

٢٢ - ولا ابداع حقيقيا الا فى ظل « النفس الطويل » ،
أى حين يتحول الابداع الى مشروع ندى حلقات ومراحل .
يكون المبدع خلالها قادرا على مجابهة الصعاب وتعدى
العوائق ، ممسكا بالنواجز طوال الوقت بحبل فكرته
الجديدة المتين ، لا يسقطه ولا يسهو عنه ، وان بدا عنه
فى عين الغريب لاهيا . وبعبارة أخرى فان الابداع يشترط
فى المبدع نوعا من الصبر العظيم والثابرة ، فلا ابداع فى
ظل « النفس القصير » ، ولا يدرك الابداع الا بالنظر اليه
فى خلال « الأمد الطويل » . وينطبق هذا الوصف الاجمالى
على حالات الابداع الحضارى للأمم ، وعلى حالات الابداع
الشخصى للأفراد على السواء . ان الابداع الحق لا يعرف
« بيضة الديك » .

٢٣ - وقد أشرنا من قبل الى أهمية سيادة روح
الاشكال من جهة ، والروح النقدية من جهة أخرى عند
المبدع ، وهذا وذاك يؤدي بالطبيعة الى سمتين متلازمتين
من سمات الابداع ، ألا وهما أنه يقوم على التعددية من
جهة ، وعلى الحرية من جهة أخرى . فمحض الابداع ،

وهو نبذ قديم والاتيان بجديد ، وهو البدعة ، يعنى التعددية
ويعنى الحرية . ان الابداع يعنى البديل دائما .

٢٤ - كذلك كنا قد اشرنا الى ان الابداع هو تجديد
جوهرى ، وليس أى تجديد ، فالابداع لا بد له ، لكى يكون
على الحقيقة ، أن يصيب كبد الأمر ، وهو ما يعود بنا الى
فكرة « الجذرية » من وجه ما .

٢٥ - أخيرا ، فانه لا يوجد ابداع فى الفراغ ، فهو
دائما استجابة هادفة قصدية ، وهو ، كما اشرنا قبل
سطور ، تقديم للبديل ، واعادة تنظيم للموقف ، واعادة
تعبئة للطاقات ، بما فى ذلك أشكالها وتوجهاتها . ولنا أن
نضيف من هذه الزاوية أن الابداع ضرورة لاستمرار
الحياة المنظمة ، بل لاستمرار « الذات » الجمعية على
الأخص . وتاريخ الحضارات دال على أن الاستجابة
الابداعية هى وحدها التى توفر السيادة للحضارة ، وتسمح
لها بالاستمرار على مدى الحياة . ولا تضمحل الحضارة
وتنهار الا حين تفتقر الى نمط الاستجابة الابداعية . ولك
أن تقول الشيء نفسه ، على نحو ما ، عن مستوى المبدع
المفرد ، فنانا أو فيلسوفا ، فهو اما أن يكون « شيئا » ،
أى أن يقدم ابداعا ، واما أن يكون « لاشيء » ، أى أن
يكون مثل هذا وذاك ولا تفرق . وهناك كثير من شواهد
« ضرورة » الابداع لحياة المبدع ولاستمرارها ، وحين
ينضب ماء الابداع ، لا يصبح لحياة المبدع من معنى .

ثانيا : وضعنا الفلسفي

ما الفلسفة :

٢٦ - لابد أن نتعرف ، فى سرعة وإيجاز ، على طبيعة الفلسفة ، تمهيدا لتعرف وضعنا الفلسفى ، وسوف نعالج هذا الموضوع على حسب العناوين التالية : الفلسفة بوصفها نشاط ، موضوعها ، منهجها ، هدفها ونتائجها ، الفلسفة بما هى تخصص ، ثم نقدم تصورنا للفلسفة من حيث هى مبحث فى « الأصوليات » .

(أ) مقدمات :

٢٧ - لسنا هنا بطبيعة الحال فى مجال تقديم تعريفات الفلسفة على النحو الذى نجده فى الكتب التعليمية ، ولا يعيننا أن نقف عند ما فهمه بشأنها اليونان أو الاسلاميون أو فلاسفة الحضارة الغربية ، فلا يهمنى التاريخ هنا كثيرا أو قليلا ، وإنما ننظر نحن مباشرة الى ذلك الجانب من أنشطة الثقافة ، ونجد أنه يبحث فى الأصول والغايات على نحو عقلى شمولى (أو كلى) ، ويمكن أن نقصد طويلا فى هذا التعريف لتتعرف متضمناته من جهة ، ولنبين كيف أن ما ليس بفلسفة يشار اليه سلبا فيه من جهة أخرى .
لكننا نكتفى الآن بأن نؤكد وحسب هذه العناصر الثلاثة الكبرى للنشاط الفلسفى : الاصولية ، العقلية ، الشمولية .

ذلك ، لتكون هي « الذات العليا » في مقابل ، 'لأنا' الفاعل
في ثنايا الأحداث اليومية .

(ج) الفلسفة هدفا ونتائج :

٣١ - اذا كانت وظيفة الفلسفة تقديم تصور للعالم ،
فان هدفها هو الوصول الى رؤية واضحة جذرية (أصولية)
للكل ، ونتيجتها هي زيادة مساحة تلك الظاهرة الانسانية
الكبرى ، ألا وهي الوعي بتكامل الكل ، فبالفلسفة يبرز
الكل وتعاد صياغة وظائف الأجزاء في اطاره . وتأخذ
الفلسفة أحد شكلين رئيسيين : فهي إما فلسفة تبرير ،
وإما فلسفة توجيه ، أى أنها إما أن تبرر أوضاعا قائمة
باعطائها الصياغة النظرية التأصيلية ، وإما أن تعرض
البديل التأصيلي تمهيدا لتغيير الواقع والعمل . من ناحية
أخرى فان الفلسفة فى حدها الأدنى تقدم نوعا من المعرفة،
ولكنها فى قممتها تقدم ما هو أهم من المعرفة ، تقدم «الفهم» .
ولعل هذا أن يكون معيارا للتمييز بين الفلسفة الدنيا
والفلسفة العليا ، بل بين الفلسفة السلبية والفلسفة
الايجابية . ومن هنا فان الهدف من الفلسفة هو حقا تغيير
العالم ، أو قل ، بالدرجة الأولى ، تغيير نظرتنا اليه تمهيدا
لتغييره ، بحيث يكون المقصود هو العالم الانسانى فى
المحل الأول ، ومن بعده ، بعيدا ، العالم الطبيعى . لذلك
فان الاطار الفعلى للفلسفة ، حتى حين تتحدث عن الوجود

والكون والمعرفة ، هو اطار الانسان ، كائنا بذاته ، وكائنا اجتماعياً ، وممثلاً للكون ، وعلى صلة ضرورية به .

(د) موضوعها :

٣٢ - ولعل القارئ قد لاحظ أننا لم نشير الى « الحقيقة » بشيء فى سياق حديثنا عن هدف الفلسفة . وان المدقق فى مفهوم « الحقيقة » ، يجد أن له وجهها « منطقياً » وآخر « وجودياً » . أما الوجه المنطقي فانه يعنى تطابقاً بين حكم ، أو قضية ، وشيء (أو أشياء وعلاقات) .

والفلسفة ليست اشارة الى وجود خارجي ، الى « موضوع » يقف بازائها موقف المرجع من القول المشير اليه ، لأن الفلسفة اعادة ترتيب لمجموع الأقوال والتصورات على نحو تأصيلي شمولي ، بطريق العقل البرهاني . وبهذا لا تكون الفلسفة تعبيراً عن « حقيقة » بالمعنى المنطقي . ويمكننا أن نتصور فلسفات عدة تعبيراً عن تأصيل للمجموعة نفسها من الأقوال والتصورات التي تكون ثقافة عصرنا .

وعلى غير حال الفلسفة ، فان « المعرفة » على المستوى الأدق لها ، أى مستوى « العلم » بالمعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة ، هي التي تجعل من الحقيقة (المنطقية) هدفاً لها .

فى حين يصبح هدف الفلسفة أقصى قدر من « العقلانية » ،
بمعنى وضع اليد على الجذور الأصلح لضم أكبر مساحة
من حقل الثقافة تحت ضوءها ، أى تحت تفسيرها •

وهذا ما سبق أن أشرنا إليه بعبارة أخرى حين
استعملنا اصطلاح « الوعى بتكامل الكل » ، وعلى الحد
الأدنى فان هدف الفلسفة يصبح أكبر قدر من « الاتساق »
بين « الأصول » التى تعرضها الفلسفة ، والظواهر الجزئية
موضع التوحيد التفسيري •

٣٣ - أما الوجه الوجودى للحقيقة فانه ينير الى
« الواقع » أو الى « الموضوع » الأكبر ، الذى هو فى
النهاية « الوجود » بأقوى وأشمل ما يدل عليه هذا التصور •
ومن هذه الزاوية تكون « الحقيقة » ، أى الوجود ،
موضوع الفلسفة ، ولكنها الموضوع الأخير ، أو الثانى ،
لأن موضوعها المباشر هو ، كما قلنا منذ قليل ، أقوال الثقافة
وتصوراتها فى عصر معين • وقد سبق أن قلنا ان الانسان
يمثل مركزا فى قلب هذا الوجود ، وهو فيه على السواء
واضع السؤال ومفتاح الاجابة • ويحتاج بيان العلاقة بين
الموضوعين الى تفصيل وتدبير ليس هذا مكانه •

(هـ) منهجها ومنهجها :

٣٤ - ينتج عن بعض ماسبق أن منهج الفلسفة العام
هو « التأصيل » « الشمولى » • ولكن طريقة عرض

الفلاسفة لأبحاثهم تتباين تباينا كبيرا ، كما أن طريقة تناولهم لمادة الفلسفة ، أى للأقوال والتصورات التى تعمل عليها تختلف كذلك فيما بينهم . وعن ثم يمكن فى الوقت نفسه أن نتحدث عن « منهج » الفلسفة وعن « مناهج » الفلاسفة . ولاشك أن قدرا كبيرا من خصائص المنهج الفلسفى يقوم فى مجرد فكرة « البحث » ذاتها ، فالفلسفة كما أشرنا هى بحث فى المحل الأول والأهم ، ولكنها بحث من نوع خاص متميز عن مختلف ألوان البحوث الانسانية ، لأنه يتجه الى الأصول ، ويشترى النظرة الشمولية ، ولا يقوم الا على العقل . ونشير هنا الى مسألة جزئية ، ولكنها جديرة بالإشارة اليها ، دون تفصيل لا يحتمله المقام ، ألا وهى تغير معنى « البرهان » بين الفلسفة والعلم . فالبرهان العلمى ، فى ميدان الطبيعة والانسانيات ، يقوم على اقامة الحجة على وجود التقابل بين القضية والظواهر الموضوعية التى تشير اليها ، أما فى الفلسفة فان البرهان الفلسفى هو ، ايجابا ، اقامة الدليل على « الاتساق » بين المقدمات والنتائج ، وأحيانا ما ينزل درجات ليصبح مجرد التفضيل لمبدأ بازاء مبادئ أخرى ، لأن الأول أكثر قدرة على تفسير أكبر قدر من الظواهر ، أى لأن شحنته « العقلانية » ، أى قدرته التفسيرية التأصيلية ، أعظم من تلك المبادئ الأخرى . ان الفلسفة فى النهاية ان هى الا « اقتراح » برؤية ، ولذلك فليس لمنهجها « ضرورة » المناهج العلمية المعروفة ، ولا هى بحاجة الى ذلك .

ويمكن القول أن البشر في كل عصر من العصور يتوزعون على عدد من الفلسفات ، بحسب ما يجدونه في هذه أو تلك من وشائج القربى مع أفكارهم الخاصة ، ويكون فضل الفلاسفة أنها تصرح وتفصل ، في حين أن اتجاهاتهم هم تكون أقرب الى الضمنى والى الاجمال . وعلى هذا فلا مجال للحديث عن الفلاسفة من حيث هي « علم » ، ولا مجال للحديث عن « الموضوعية » أو ماشابه . ولن نفصل هنا في مسائل منهجية مهمة ، من مثل لجوء الفلاسفة الى « التجريد » الشديد ، وهو ما يتصل بفكرتى الأصولية والشمولية معا ، فليس هذا الحديث التمهيدى عن مشكلة الفلاسفة في مصر موضعه .

(و) الفلاسفة بما هي تخصص :

٣٥ - من القادر على فهم الفلسفة ؟ يجب أن يكون الجميع قادرين . من القادر على تقديم فلسفة ؟ لا نملك مع واقع الحال وضرورات الأمر الا أن نجيب جميعا : أفراد نادرون ، فلاشك في أن الفلسفة تخصص ، بل هي صنعة واحتراف ، وصنعة نادرة . والسبب هو أنها تتطلب خصائص خاصة جدا ، تعود الى ما يناسب الثلاثى الفلسفى : الأصولية والشمولية والعقلية . ومع ذلك فان هناك دائما ، وفى كل المواقف الكبرى ، فلسفة ، صريحة كانت أو ضمنية . ومن هنا فانه يمكن أن نتحدث عن

« نداء الفلسفة » الضرورى ، وهو نداء البحث عن « العقلانية » ، وعن « التنظيم » ، وهو ينبع من حاجة تبدو معطاة مع أول خطوات الفعل الانسانى : الحاجة الى الفهم . وقد سبق لنا أن ميزنا بين الفلسفة والمعرفة ، ويمكن أن نقول على نحو ما ان صعوبة الفلسفة بما هى تخصص تأتى من أنها بالضرورة « معرفة المعرفة » . ويؤدى هذا الى أن أحد الفروض الأساسية التى تقوم عليها الفلسفة يتمثل فى تقدير المعرفة بذاتها تقديراً ايجابياً . ومن نافلة القول أن يقال ان ذلك الفيلسوف « المتخصص » لا يقوم بعمله ذاك ابتداء من ذاته الفردية ، ولا لمصلحتها ، على نحو ما يتخصص متخصص فى طب الأطفال أو التصميم الهندسى أو فن التدريس ، وانما منطلق الفلسفة بما هى تخصص هو الأنا الجمعى . ومرة أخرى يبدو لنا الفيلسوف قائداً بأدق ما يفهم به هذا الاصطلاح .

(ز) من الفلسفة الى الأصوليات :

٣٦ - هل هناك فيلسوف مصرى قديم ؟ الجواب : لا ، اذا أخذنا الفلسفة على المفهوم والنموذج اليونانيين . هل هناك فلسفة مصرية قديمة ؟ الجواب : نعم ، بالضرورة ، اذا أخذنا الفلسفة بمعناها الأعم ، بما هى تصور متسق للكون ، يبرز المبادئ والغايات ، ويوصفها جزءاً لا فكاك منه فى كل ثقافة ، سواء أكانت ثقافة قبيلة صغيرة منعزلة

فى مجاهل اسـتراليا ، أو ثقافة الصـينيين ، أو ثقافة الحضارة الغربية الحديثة . ان اختزال تصورات ثقافة انسانية معينة الى مبادئ أساسية هو جهد يشبه أن يكون تلقائيا ، فور بروز هذه التصورات بروزا واضحا ، سواء على مستوى النظر أو - على الأقل - على مستوى الفعل والعمل . اذن فجوهر الفلسفة هو البحث ، بطريقة معينة، عن الأصول (ومنها المبادئ ومنها الغايات) . ولذلك فان الفلسفة هى على وجه الدقة مبحث الأصول العامة . وسوف نتحدث من بعد عن العوامل المباشرة التى تدعنا الى تفضيل تعبير « الأصوليات » على كلمة « الفلسفة » ، دلالة على المضمون نفسه ، الذى أوضحناه فى الفقرات الأخيرة . ولكننا سوف نستمر فى استخدام كلمة « الفلسفة » ، ونبدأ فى استخدام « الأصوليات » كذلك منذ الآن على نحو تدريجى .

الوضع القائم :

٣٧ - يمكن أن نوجز وصف الوضع الفلسفى المصرى القائم بكلمة واحدة ، هى : الضياع . وليس هذا بتعبير أدبى أو انفعالى ، وانما هو وصف موضوعى دقيق ، لأن له مضمونا محددًا يتمثل فى شيئين : عدم تحديد الهوية المصرية ، وعدم معرفة الأهداف العامة للمجتمع ، وما ينتج عن ذلك من افتقاد خطة عملية للتحرك القومى . واذا كان هذان المضمونان عامين ولايخصان الوضع الفلسفى ذاته

وحده ، فان هذا لا يقلل من قوة انطباقهما على الوضع
الفلسفى الذى هو جزء من كل ، وما ينطبق على الكل ينطبق
على الجزء . واذ كان هذا المضمون هو الأساس العام
للضياع الفلسفى ، فان لذلك الضياع مظاهر محددة ، هذه
أهمها :

٣٨ - (أولا) - الضياع فى الغرب : يعوم الجهد
الفلسفى المصرى ، بخاصة منذ انتظامه على نحو مؤسسى
مع انشاء قسم للفلسفة فى الجامعة المصرية ، فى بحر
لا شاطئ له ولا قرار ، فالغرق فيه مضمون منذ اللحظة
الأولى . ذلك هو بحر الوهم العظيم المسمى « واحدية
الحضارة » ، الذى بشر به « فيلسوف » حركة الأعيان ،
« أصحاب المصالح الحقيقية » فى مصر ، أحمد لطفى
السيد ، حين قال حرفيا : « ان الأوربيين هم « أساتذتنا » ،

وعلينا ان نتعلمنا عليهم » . ويحتاج موضوع الضياع فى
الغرب الى كتب عدة للتفصيل فى أشكاله وبداياته وتحولاته
ونتائجه التى نغوص فى أحوالها اليوم . وسوف نعود اليه
من بعد فى هذه الدراسة ، ولكننا نكتفى بأن نقول الآن ان
واحدية الحضارية وهم عظيم ، بل هى الوهم الأعظم ، لأن
الحضارة ليست واحدة ، وليس هناك عصر واحد ، لأن
العصر لا يكون الا فى اطار الثقافة ، والثقافة لا يمكن ان
تنقل مهما ظن السذج الذين يعمون عن رؤية الحقائق
الحضارية ، ويظنون أن التاريخ خط متصل ينتظمه سلك

واحد . وهم بهذا يبيعون بضاعة السيطرة الغربية على ادق المعانى ، وهم فى هذا لا يدرون ، أو يكادون ، ما هم قاعلون ، ويعلمون أن من لا يرى رؤيتهم هو الأعمى ، ويتشنجون تشنج القطيعين الذين لا جلاء لبصيرتهم .

٣٩ - (ثانيا) - الضياع فى التراث : وهو يقابل الشكل الأول من أشكال الضياع ، وربما جاء ردا عليه ، وهو على كل حال ضياع « أكرم » من ذلك السابق ، ولكنه ضياع على كل حال . والعلة هنا هى العلة نفسها هناك ، فالحضارة الاسلامية التاريخية قد اكتملت دورة نموها واقفلت دائرتها بتبدد السلطنة العثمانية عام ١٩٢٣ م . وربما تقوم حضارة اسلامية جديدة ، بمعنى تنظيم شامل اجتماعى وسياسى واقتصادى وثقافى يقوم على أساس دينى ، ولكنها لا « يمكن » ، نظرا لضرورات مفهوم « الحضارة » ، أن « تعيد » أشكال الحضارة الاسلامية التاريخية نفسها . ومن هنا فان « التراث » ، أى مجموع الانتاج الثقافى الذى أنتجه البشر المسلمون (خلافا للقرآن والثابت الصحيح من السنة ، فهما باقيان مابقى الدين) ، ذلك التراث لا يمكن بحكم التعريف ذاته الا أن يكون ذا طبيعة « تاريخية » ، أى على صلة بالماضى وحسب ، ومن ثم فلا وظيفة له ، لا فى وضعنا الحاضر ولا حتى فى حالة قيام حضارة اسلامية جديدة ، فهذه ، فى حال قيامها ، سوف تضع لنفسها ، بالاعتماد على تفسير جديد

بالضرورة للقرآن والثابت الصحيح من السنة ، « تراثها » ،
وسيكون حياة ساخنة في البداية ، ثم اطارا مرجعيا
للأجيال اللاحقة من بعد ذلك طوال الحقبة التي ستدوم
عليها هذه « الحضارة الاسلامية الجديدة » المفترضة .
ونخرج من هذا كله بأن التراث التاريخي الذي ورثناه
من الحضارة الاسلامية السابقة (وهي كائن زمني على
خلاف مصدرى الدين الاسلامي ، فهما على نحو ما خارج
عامل الزمن) ، هذا التراث هو بالضرورة مجرد تاريخ
وليس اطارا « مرجعيا » لنا اليوم ولا غدا على أى نحو
سيكون عليه هذا الغد . وطبق هذا المقال نفسه على التراث
المصرى الذى نرثه ، بالضرورة ، من مصرنا القبطية ،
وعلى التراث الذى نرثه من مصرنا القديمة ، فهذا وذاك
هو بالضرورة محض تاريخ . اذن ، فكل محاولة « لحياء »
التراث هي محاولة زائفة غير ممكنة بالضرورة ، وهي
محض « كلام » يقول به من لا يفقه دروس الحضارة ، وخير
له أن يولى وجهه ، ليس شطر التراث ، بل شطر المصادر
الدائمة، وهي فى حالة الماضى الاسلامى القرآن والثابت
الصحيح من السنة . وعلى هذا ، فان دعاوى « تجديد
التراث » ، واكتشاف مذاهب « معاصرة » غريبة (!) فى
نصوص من التراث ، واعادة التفسير « العصرى » المزعوم
للمتفلسفة الاسلاميين وغيرهم ، وكان ابن رشد مثلا أو
متكلمة المعتزلة يتكلمون بلغتنا ، كما يظن البعض من

أصحاب الأقلام ، كل ذلك زيف وجهد عقيم ، يقوده اما
جهل مقيم أو مكر عظيم .

٤٠ - (ثالثا) - الضياع على مستوى برامج الفلسفة
فى الجامعات : فلنقلها فى وضوح وحسم : ان برامج
دراسة الفلسفة فى الجامعات المصرية بغير قيمة كبيرة ،
لأنها لا تقول شيئا ينتظره الطالب أو يهتم به ، الا فيما ندر ،
ويكون ذلك على الرغم من روح تلك البرامج . ذلك أنها
موضوعة على النمط الأوربى ، الفرنسى منه بخاصة
والانجليزى ، ولذلك فإنها تعبير مجسم عن « الضياع فى
الغرب » ، ومن مظاهر البلاء العظيم أن دراسة ما يسمى
« بالفلسفة » الاسلامية ذاتها يوضع من وجهة نظر خربية ،
ويمثل مكانة ثانوية بالقياس الى المساحة التى تصول فيها
وتجول أفكار وتصورات وأطر تنتمى الى الفلسفة الغربية .
وبماذا يخرج الطالب من هذه الدراسة ، على الأقل فى
جانبها التاريخى ؟ نحن نقول : بلا شىء يهمه ، وبأشياء
تزيد من ضياع وجهته ، فلا هو بقادر على « فهم » ما يعرض
عليه من نقاج الفلسفة الغربية ، وما أقل القادرين على ذلك
من بين أعضاء هيئة التدريس أنفسهم فى أيامنا هذه .
ولا هو ينجو ، من جهة أخرى ، مما يمكن أن نسميه « بؤس
الوعى » ، وهو ناتج ضرورى عن شعوره بعدم القدرة على
متابعة ما يقدم اليه على أنه نموذج الأفكار . ومن هنا ينشأ
شعور بالنقص ، ومن هنا يأتى الضياع لمن يناضل من
الطلاب من أجل السيطرة على بعض مناحى « تاريخ

الفلسفة « الغربية ، الضياع فى مسارب لن يخرج منها بشيء ، لأن تلك الافكار ليست أفكار ثقافته اليوم أو بالأمس القريب أو البعيد . ان ديكرت أو سارتر لم يفكرا لنا ولم يكونا ليستطيعانه .

٤١ - هذه هى أبرز مظاهر الضياع الفلسفى . وهناك مظاهر أخرى لن نستطيع الحديث عنها فى المقام ، منها مظهر التزييف ، أى الزعم بأن هناك « فلسفة » ما للنظام السياسى ، كما رأينا فى حقبة الستينيات ، ومن ثم الزعم بأنها فلسفة مصر كلها ، كتبها بعض « الأيديولوجيين » ، ناقلين لها من بعض الكتب المدرسية من هذا المذهب أو ذاك ، ومنها مظهر تعمية المشكلات الحقة ، وصرف الانتباه والجهد فى مشكلات زائفة ، من مثل «الأصالة والمعاصرة» حيناً ، والدين والعلم حيناً آخر ، مما تلوكه أقلام أنصاف « الكتاب » الذين سرعان ما يلبسون مسوح « المفكرين » ثم « الفلاسفة » مع مضى الزمن ، ومنها مظهر الازدواجية فى تقويم الفلسفة ، فحينما يستعمل الاسم لكل مايراد له أن يكون مهماً أو عظيماً ، وحينما تسخر السنة مسئولة وتحرف الاسم ليصبح « فلسفة » ! وهذا ما يشكل ظاهرة خطيرة هى الازدواج الوجدانى ازاء الفلسفة ، ما بين اقبال وادبار ، أو بين قبول ورفض . ولكن التفصيل فى هذه المظاهر ، حتى ولو كان على سبيل الاشارة السريعة كما فعلنا مع المظاهر الثلاثة السابقة ، سيخرج عن حدود

صفحات هذه الدراسة ، بل عن غرضها المباشر . وهو تصور الموقف ، والاشارة الى المخرج .

الأصول التاريخية :

٤٢ - لاشك ان لوضع الضياع هذا اصولا تاريخية تمتد بعيدا ، ويمكن أن نعيد صياغة أهم مظاهر الضياع الفلسفى المصرى ، لكى نعيد توزيعها على المراحل التاريخية التى نعددها مسئولة عن الوضع الفلسفى القائم ، وأن نضمها فى ثلاثة :

(أ) الادبار عن الفلسفة من حيث الاصل . وعلى درجة أدنى التشكيك فى قيمتها ، أو بيان أنها - على أحسن تقدير - مجرد ترف ، وقد تكون ترفا ضره أكبر من نفعه .

(ب) الارتفاء فى أحضان الفلسفة الغربية ، على نحو ما أشرنا اليه .

(ج) عدم القدرة على اتخاذ المبادرة ومجابهة المطلب الثقافى الحتمى ، القاضى بانشاء فلسفة مصرية حقا على مستوى احترافى متخصص .

٤٣ - أما المظهر الأول ، ونسميه مظهر الادبار عن الفلسفة ، فان منبعه الحقيقى هو رواسب الثقافة الاسلامية التقليدية ، وهى لاتزال فاعلة من خلال تعلقها بأذيال التدين

الاسلامى . ونحن ، كما ألمحنا ، نفرق بين الجانبين تفريقا حاسما . ولكن الواقع أن الاتجاه العام فى الثقافة الاسلامية التقليدية ، منذ القرن السادس الهجرى ، وبعد هجوم أبى حامد الغزالى على الفلسفة والفلسفة ، أصبح يسير فى خط ادانة الفلسفة ، وشيئا فشيئا ابتعدت الأنفس الورعة عن الاهتمام بها ، ووصلنا فى النهاية الى قواعد من مثل : «من تمنطق فقد تزندق» ، حتى نجد رفاة رافع الطهطاوى ، فى أول كتاب عربى واسلامى حديث ، هو « تخليص الابريز » ، يعيد الحديث عن الفلسفة بلهجة الاحترام ثم الترغيب ، ولكنه لا يقدم الحديث عن الفلسفة الا بعد أن يمهد ويحتاط . ولم تكن اشارتنا هذه الا من أجل الاستيفاء التاريخى ، لأن المعاهد الدينية الحديثة لا تفزع من الفلسفة فزع القدماء ، بل ان هناك تحولا ايجابيا فى مواقفها ، يتمثل اظهر ما يتمثل فى وجود قسم من أقسام كليات أصول الدين بالأزهر الشريف يحمل اسم « العقيدة والفلسفة » ، وان كان الهجوم على الفلسفة يظهر بين حين وحين ، وفقا لمدى اقتناع الأساتذة أنفسهم .

٤٤ - وأما المظهر الثانى ، وهو الضياع فى الغرب ، فإنه يبدأ واضحا حاسما منذ عهد دستور ١٩٢٣ ، بعد ما مهد له منظرون من أمثال قاسم أمين ثم أحمد لطفى السيد . وما مواقفهما الا النتيجة التى كان الاحتلال يروج أن تختمر بذورها ، وأن تثمر ثمرتها فى عقول المصريين

ذواتهم ، لتكون درسا أساسيا من دروس الاخفاق التاريخى
لحركة مصر فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وأثرا غير
مباشر من آثار الاحتلال البريطانى ، ومن قبله ومعه النقود
الفرنسى ، فى أجواء الثقافة العليا .

٤٥ - وأما المظهر الثالث ، وهو مظهر عدم المجابهة
والنكوص عن المبادرة ، فانه اثر مباشر للسياسات العامة
للحكم فى مصر فيما تلا ١٩٥٢ ، حيث برزت ظواهر خطيرة ،
بدأت بما نسميه « استقالة » المفكرين ، أى نكوصهم عن
أداء واجبهم التاصيلى فى استقلال ومثابرة ، وذلك فى
الأغلب الأعم ، وعلى درجات متفاوتة ، ومهما تكن الأسباب
الموضوعية لذلك ، وفى مقدمتها الترهيب والغواية ، وانتهت
بهذه الظاهرة المرضية التى نسميها بظاهرة « الحاكم
المفكر » وما يتبعها من ظواهر فرعية ، من مثل « الموظف
الأيديولوجى » ، و « المفكر المرتزق » ، وصعود كتاب
صحفيين الى مرتبة « المفكرين » ، والخلط بين الأديب
والمفكر ، الى غير ذلك .

ثالثا : محاولات الابداع وفروضها المسبقة

٤٦ - الابداع قرين الحياة ، وهو فى بساطته السانجة
الأولى استجابة مناسبة لموقف جديد . والحياة لا تكف
عن التغير ، ومن ثم لا يتوقف سبيل استثارة رد الفعل

الابداعى • ومهما يكن من شأن المعوقات التى تقف فى وجه تيار الابداع ، فان فكرة الرغبة فى الابداع ، أو قصد الابداع ، لم يغب بالكلية عن أفق نظر الثقافة المصرية الحديثة ، مهما يكن الأمر من سذاجة بعض التوجهات أو الضباب الذى أحاط بتوجهات أخرى، أو الاخفاق الضرورى الذى منى به بعضها الآخر •

٤٧ - ولن يمكننا الحديث عن فلسفة جديدة ، أو عن قصد فلسفة جديدة ، الا فى اطار الدولة المدنية ، وفى اطار تعدد فكرى • ولذلك فلا مجال للبحث فيما خلف نظام دستور ١٩٢٣ م • ومع ذلك ، فقد ظهرت فى الحقبة السابقة ، منذ عصر محمد على ، بعض البدايات ، لعل أولها ، وأهمها ، اعادة التقويم الايجابى الى مفهوم الفلسفة على يد رفاعة الطهطاوى ، ومنذ كتابه الأول نفسه، « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » (صدر عام ١٨٣٤ م) • كذلك ظهرت عروض لأفكار فلسفية غربية على يد كتاب جيدى الفهم ، أبرزهم السورى أديب اسحق ، فى المدة بين ١٨٧٨ و ١٨٨٢ م • ومع أديب اسحق يظهر بشكل واضح تيار الأخذ عن الغرب على أساس أنه ضرورة ثقافية ، أى مايمكن أن يسمى بتيار « التقليد مظنوننا أنه الابداع » •

ومن الظواهر اللافتة للنظر كذلك فى الحقبة نفسها وما تلاها ، أن اتباع جمال الدين الأفغانى أخذوا فى تلقيبه

« فيلسوف الشرق » . وسوف تبرز هذه التسمية على الخصوص في المواجهة (على ما صورت عليه ، برغم أنها لم تكن في الحق كذلك) بين الأفغانى وارنست رينان ، الكاتب المتفلسف الفرنسى ، حول حظ الشرق من الفلسفة . وربما أسبغت على الشيخ محمد عبده بعض هالة فلسفية ، وان لم يكن ذلك فى صراحة ما نسب الى الأفغانى ، على الأقل فى أثناء حياته ، لأنه ستظهر محاولة صريحة فى هذا الاتجاه بعد وفاته(١) . أخيراً فما من شك فى أنه ستظهر أفكار فلسفية عند بعض الكتاب الشاميين ، من أمثال شبلى شميل وفرح أنطون ، وعند قاسم أمين وأحمد لطفى السيد ، وكذلك عند عباس محمود العقاد وسلامة موسى فى كتاباتهما المبكرة ، وعند غيرهم ، وذلك كله فى الحقبة السابقة على الحرب العالمية الأولى .

نظرة الى المحاولات الابداعية الفلسفية

٤٨ - انه لذو مغزى كبير أن التاريخ الحديث للفلسفة فى مصر لم يكتب بعد ، ولم تتعرض له دراسة متأنية شاملة متصلة ، وكل ما هنالك أبحاث جزئية ، تخص بعض الأشخاص فى أغلب الأمر ، وتتصا ، بالسنين الأربعين الأخيرة فى معظمها ، على حين ينبغى تأصيل البحث بالرجوع الى نقطة البدء المتعارف عليها تاريخياً لمصر الحديثة ، وهى زمن الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ -

١٨٠١ م) . وهناك عناصر أساسية يعرف على الأقل اتصالها بهذا الموضوع ، منها مكان الفلسفة فى مراحل التعليم بأنواعه ، ومنها دراسة الترجمات ثم المؤلفات . ومنها مواقف بعض كبار الكتاب ، منذ رفاعة الطهطاوى الى كتاب النهضة المصرية (١٨٧٨ - ١٨٨٢ م) ، الى الأفغانى ومحمد عبده ، الى قاسم أمين وأحمد لطفى السيد ومن تلاه فى مرحلة دستور ١٩٢٣ وما بعدها ، ما بين جامعيين احترافيين وكتاب تستهويهم مسائل ومواقف فلسفية بين حين وآخر .

٤٦ - ولسنا هنا بصدد الاشارة الشاملة الى حركة الفلسفة فى مصر الحديثة ، ولا حتى على سبيل الايجاز ، ولكننا ننظر الى الأمر من زاوية الابداع ، ومن زاوية ارادة الابداع على التخصيص . وهنا لا نستطيع الا أن نقرر قضيتين أساسيتين تحكمان مسرح الموضوع بأسره :

(أ) حركة الفلسفة فى مصر ، فهما لموضوعها ، وتعليما لها ، وتاليفا فيها ، يحكمه منطق النقل عن الغرب ، تحت لواء فكرة الفلسفة الواحدة (ومن تحتها فكرتا العقل الواحد والانسانية الواحدة ، كما سنرى فى القسم الأخير من هذه الدراسة) .

(ب) وحتى حين يكون هناك هدف التجديد (وهو شكل مخفف مما أسميناه بارادة الابداع) ، الذى يأخذ شكل

إبراز مذهب متميز ينتسب إلى صاحبه دون غيره ، فإن ذلك التجديد المزعوم يتم كذلك فى إطار السباحة فى مياه الفلسفة الغربية فى مرحلة أو أخرى من مراحلها .

ولن نتعرض هنا لتفصيل القضية الأولى ، وإنما تهمنى ، فى إطار الدراسة الحالية ، القضية الثانية ، التى تبرز مضمونها بإشارات موجزة إلى اثنين من المؤلفين الاحترافيين ، الذين حاولوا قصدا تقديم مذاهب « جديدة » على ماكانوا يؤملون ، وهما يوسف كرم (توفى عام ١٩٥٩ م) ، وعثمان أمين (توفى عام ١٩٧٨ م) .

٥٠ - ويمكن أن نقول بغير تحفظ أن كتابى يوسف كرم « العقل والوجود » ، و « الطبيعة وما بعد الطبيعة » ، يحتلان المرتبة الأولى بين التأليف الفلسفية الحديثة من حيث الالتزام بالمصطلح الفلسفى ، وتوافق الشرائط الفنية فى العرض الفلسفى . ان هدف يوسف كرم هو عرض الحقيقة أو الحق بشأن كل المسائل (« العقل والوجود » ، ص ٧ ، « الطبيعة وما بعد الطبيعة » ، ص ٥ ، والاشارات إلى طبعتى الكتاب الأوليين فى دار المعارف بمصر ، فى عامى ١٩٥٦ و ١٩٥٩ م . على التوالى) . ويعرض المؤلف فى الواقع لمختلف مسائل نظريتى المعرفة والوجود بالتركيز والايجاز والوضوح والعمق المعروفة عنه جميعا ، سواء فى كتابيه هذين أو فى كتبه الثلاثة الأخرى عن « تاريخ الفلسفة اليونانية » و « تاريخ الفلسفة الأوربية »

في العصر الوسيط ، و « تاريخ الفلسفة الحديثة » .
ولكن الحق معروف مسبقا في نظر يوسف كرم : انه فلسفة
أرسطو . يقول عن المذهب الذي يعرضه : « اذا سئلنا عن
هذا المذهب ، وعن مصدره ، قلنا انه المذهب العقلي ،
يؤمن بالعقل Intellectualisme ، ولكنه المذهب العقلي
المعتدل ، يؤمن أيضا بالوجود ويقدر تعقله عليه ، ثم قلنا
ان أفلاطون قد سبق الى بعض لمحات منه ، ولكن أرسطو
هو زعيمه الأول ، الذي استخلص معانيه الأساسية ،
ومبادئه المنطقية والميتافيزيقية ، وصاغ تعريفاتها ،
واستخرج نتائجها ، وان الفلاسفة الاسلاميين ، وبخاصة
ابن سينا وابن رشد ، قد أسهموا فيه باللسان العربي
المبين ، فنحن نعود الى هؤلاء جميعا ، ونؤيد شروحهم
وأدلتهم ، ونبين تهافت الذين حادوا عنها من الفلاسفة
المحدثين . . فعسى أن يقتنع قارئ هذا الكتاب أن الحق
مكنون في هذا القديم الذي نبعثه » («العقل والوجود » .
ص ٧) . وهو يعود في خاتمة الكتاب (ص ١٨٧ -
١٨٨) الى الإشارة الى سقراط وأفلاطون وأرسطو الذين
افتتحوا هذا « الطريق الملكي » للفلسفة ، ولكن الفلاسفة
الآخرين المنكرين حادوا عنه . ومهمة يوسف كرم هي
إعادة الأمور الى نصابها ، والرد على الشكوك ، وتبديد
الشبهات ، ولهذا فإنه يرد في كتابيه على كل المخالفين ،
في الفلسفة الغربية الحديثة بخاصة ، لمذهب الحق الثابت ،
مذهب أرسطو ، الذي يتابع يوسف كرم كل تقسيماته

الكبرى فى مناقشة المسائل ، سواء فى نظرية المعرفة أو فى نظرية الوجود . وهكذا فان يوسف كرم لم يكن الا صورة حديثة من « الفلاسفة الاسلاميين » التقليديين ، الذين افتقروا الى الحس التاريخى ، وأخذوا بمبدأ الحقيقة الواحدة والعقل الواحد ، والذين ساروا فى خط التبعية الفلسفية . فهل من جديد حقا عند يوسف كرم ؟ ان أخذنا الكلمة بالمعنى المطلق قلنا : نعم ، هناك جديد عنده ، يتمثل فى رده على المذاهب المعارضة لأرسطو بوجه خاص . ولكننا اذا أخذناها على المعنى الدقيق لم يكن هناك لديه جديد ، بل هو تقليد وتبعية .

٥١ - وربما يكون الجديد أوضح لأول وهلة عند عثمان أمين ، حيث يقدم فكرة محورية ، هى أقرب ما تكون الى المفتاح والى خط النظر منها الى المبدأ الفلسفى ، الا وهى فكرة « الجوانية » ، التى يقول عن طريقها : « والطريق هو تقديم « الذات » على « الموضوع » ، والفكر على الوجود ، والانسان على الأشياء ، « والرؤية » على « المعاينة » ، والتمييز بين الداخل والخارج ، وبين الكيف والكم ، وبين بصر العقل وبصر العين » (« الجوانية » أصول عقيدة وفلسفة ثورة » ، الطبعة الأولى ، ص ١٢١) . ويضيف : « ان الجوانية فلسفة تستند على تزكية الوعى الانسانى ، وممارسة الحرية النفسية ، وتسعى الى تعميق فهمنا للمقاصد والمعانى والقيم . وهى بهذا الأساس تمارس

الوظيفة الفلسفية على الأصالة : التماس اللب والمبدأ
والكيف والحق » (نفسه ، ص ١٢٣) . وه يرى أن
« دعوتها الفكر الى الالتفات الى ذاته ليجد فيها سبب
الأشياء وقوامها ، وفي توجيه النظر الى الاحتفال بالمعنى
والفكرة والمثال ، منهج لايزال كبير الأهمية لفهم العالم
وفهم الانسان » (نفسه ، ص ١٣٤ - ٤) . ويقول فى
موضع آخر : « ان الجوانية من حيث هى فى صميمها
فلسفة وعى ، قد اتخذت لنفسها الشعار الاسلامى العملى ،
شعار « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ، ورات هذا
المبدأ « فرض عين » لا فرض « كفاية » ، وجعلته مبدأ
من مبادئ الوعى الانسانى . » (نفسه ، ص ٢٦١ -
٢٦٢) .

٥٢ - ولن نتعرض هنا لمعارضة الفلسفة الجوانية
(راجع انتقادات نافذة فى دراسة الدكتور حسن حنفى «من
الوعى الفردى الى الوعى الاجتماعى » ، فى « دراسات
فلسفية مهداة الى روح عثمان أمين » ، (١٩٧٩ ، ص
٤١١ - ٤٦٦) ، ولكن نشير الى ملاحظتين تخصان منظور
الابداع :

(١) ان الدكتور عثمان أمين لم يأخذ فكرته الأساسية
ليتوجه بها مباشرة الى اعادة تفسير الوجود والمعرفة
والظواهر الانسانية ، بل ظل معها حبيس افكار الآخرين ،
من يونان الى اسلاميين الى غربيين الى اسلاميين محدثين

أخيراً ، يحاول أن يستدل على مظاهرها عندهم ، وكأن قوة الفكرة في قول الآخرين بها . وفي هذا كله نجاء ظاهرة التبعية نفسها ، ولكن هذه التبعية مزدوجة : فهي تبعية بازاء الفلسفة الغربية ، يونانية وحديثة ، وبازاء التراث الدينى الاسلامى (جامعا لأشتات من الكلام والتصوف ، والعقل والنقل ، وابن رشد والغزالي) . ولاتكاد تخلو صفحة من صفحات كتاب « الجوانية » من اسم بل أسماء من عالم الفلسفة الغربية وأعلام الاسلاميين . وهكذا ينتصر في عثمان أمين مؤرخ الفلسفة على الفيلسوف .

(ب) ان أسلوب عرض هذا المنظور الفلسفى لا يتواءم مع الدراسة الفلسفية ، فما كتاب « الجوانية » الا نظرات متفرقات ، فيها عنصر اليوميات ، وعنصر مفكرة القراءة ، وعنصر الأبحاث التاريخية واللغوية والدينية . والبحث الوحيد الذى يتفرغ لتقديم عناصر المنظور الفلسفى الجديد، أو المراد له أن يكون جديدا ، هو المعنون « ملامح الفلسفة الجوانية » (ص ١٢١ - ١٤٥) ، (وراجع أيضا ص ٢٦١ - ٢٦٣) . وهكذا يتغلب النفس القصير على النفس الطويل عند عثمان أمين . وبالمقارنة يظهر الفضل الكبير لكتابى يوسف كرم ، اللذين يلبيان مطلب البحث المفصل المتصل . ان الابداع الفلسفى لا يتم بالقاء فكرة فى صفحات، كما أن الشاعر العظيم ليس ذلك الذى يطلق بيتا رائعا أو

قصيدتين من الدرر ، انما يشترط له العرض التفصيلي
الممتد .

٥٣ - ويثير هذا الأمر الأخير مسألة ذات خطر : ما
الشروط الواجب توافرها لكي تكون مجموعة ما من الأقوال
« فلسفة » ؟ ويثير هذا نفسه مشكلة لا تقل خطرا : من
الفيلسوف على الحقيقة ؟ ولن نعرض لهذه المشكلة الثانية
هنا ، ونكتفى بإشارات أساسية فيما يخص المسألة الأولى ،
فنرى أن شروط القول الفلسفي هي كما يلي :

(أ) أن يكون الموضوع المتناول فلسفيا ، أو «أصوليا» ،

بمعنى أن يكون خاصا بمسائل أصولية وكلية .

(ب) أن تكون طريقة تناوله عقلية برهانية .

(ج) أن يكون أسلوب عرضه على هيئة الكتاب المطول

وليس المقالة القصيرة التي لا تتواءم مع طبيعة

البحث الأصولي الشمولية .

رابعاً : شروط الابداع الفلسفي المصري

٥٤ - نعرض لهذه الشروط في سبع نقاط ، هي على

التوالي : الوعي بالذات ، هدم الأوهام ، ارادة الرؤية

الواضحة ، شروط موضوعية أساسية ، شروط خاصة

بالمبدع بما هو فرد ، شروط منهجية ، البدء من فلسفة في

الحضارة .

١ - الوعي بالذات :

٥٥ - اشرنا من قبل الى انه لا عبقرى ، وهو قمة المبدعين ، الا وهو يعى ذاته ، وليس عبقرىاً من لا يعى ذاته على هذه الصفة . ولا نشك لحظة فى أن مكتشف النار قد أدرك أنه أتى بدعا ، وأنه نادر المثال . ولكن الابداع الفلسفى لايمكن أن يكون ابداعاً فردياً ذاتياً ، على نحو ابداع الشاعر ، فى معظم الحالات ، مثلاً ، لأن الجهد الفلسفى جهد اجتماعى بالضرورة . واذا كان الجمهور ضرورة فى الفن ، فانه فى الشعر قد يقتصر على شخص واحد ، واقع أو متخيل ، أما فى الفلسفة فان الجمهور هو بالضرورة الأمة جمعاء ، التى ينتمى اليها الفيلسوف . ولذلك كله فان الوعي بالذات المشار اليه فى العنوان هو على مستويين : وعى الأمة بذاتها ، ووعى الفيلسوف فرداً برسائلته وقدراته . ونتحدث عن هذا المستوى الثانى فيما بعد ، وما نقصده هنا هو المستوى الأول . فما الفلسفة ؟ هى رؤية متميزة للكون ، ولايمكن أن تكون الا فى اطار ثقافة أمة ، ليست متميزة عن غيرها وحسب ، بل وتعى هذا التميز (ونقصد به محض الغيرية ، بلا اضافات من استعلاء أو غيره) .

ان مصر هى أقدم أمة تعيش على الأرض ، ذابت فى طوفان التاريخ شعوب كانت معاصرة لبنائها لأول خطوات الانسان فى الحضارة التاريخية كما يذوب الطين فى الماء

ولما جف الماء بقيت منها الآثار وحسب ، أما مصر فحفظها غير هذا الحظ ، فقد استمرت قائمة مكانا وموضعا وبشرا وثقافة أساسية ، وطرأت عليها تيارات من ثقافات وأديان ، ولكن بقدر ما تشربت منها استمر من ذاتها القديمة شيء أساسي لاتكاد الا العين المدربة الخبيرة أن تدركه . وما حديثنا هذا نفسه الا شاهد على ذلك ضمن شواهد . وقد كان من الطبيعي في اطار الثقافتين الدينيتين اللتين استقرتا في مصر ، القبطية ثم الاسلامية ، أن يتوارى الوعي بالذات المصرية لينغمس في الذات الدينية الجديدة ، بخاصة أن الدين لا يكاد يقيم للذات وزنا الا ليجعلها تتوجه الى الذات الكبرى الكونية ، الذات الالهية ، اما لتفنى فيها ، أو - على الأقل - لتسبح في نورها . ومع ذلك فان ذات مصر بدت منفردة ومتفردة من خلال هذه الأغطية الجديدة ، فانفردت بمذهبها « القبطى » ، وبكنيستها المصرية ، وانفردت بتصوير للاسلام يتوازن فيه العمل والعلم ، ويتلأأ اتزاناً وتوسطاً ، وانتزعت شعلة الاسلام ، بل وشعلة اللغة العربية ، وهى ليست من حيث الأصل الا لغة غريبة عنها ، فحفظتهما حرباً وسلماً ، وعلماً وأداءً . فما أقدر مصر اذن ، أمة هى « الأمة » اذا كان بين البشر أمم ، وما أندرها ! ، على أن تكون ذاتاً ، وعلى أن تعى ذاتها .

ويمكن أن نقول ان قصد مصر الجوهري في السنين المتئين الأخيرة هو أن تعى نفسها ، ولكن العوائق التى

قامت دون هذا عوائق هائلة ، من خارجهها ومن بعض داخلها ، وربما يعود عدم ظهور فلسفة مصرية حقة فى أصله البعيد الى هذا السبب ، فلن تقوم فى مصر فلسفة الا بشرط وعى مصر بذاتها • ولا شك أن العوائق الخارجية أعظم تأثيرا من العوائق الداخلية ، وما هذه فى معظمها الا انعكاس لتلك العوائق الخارجية ، التى مصدرها اما قوى مسيطرة ترغب فى السيادة ، واما قوى متنافسه (ان لم نسماها بما هو أقل من ذلك) تريد أن يظل الغطاء كاتما لجوهر مصر ، وأن تزداد فوقه اغطية وأغطية •

٥٦ - ولاشك أنه يتحتم علينا أن نجيب اجابة واضحة عن هذا السؤال الخطير : أم مصر ؟ وقد سبق أن اثبتنا أن الابداع الفيلسفى لا يتم الا فى اطار ثقافة أمة تعى ذاتها • والآن فان الأمة التى فى متناول يدي ، والمؤكد انتمائى اليها وانتمائها الى ، ان أمكن أن نقول هذا ، والتى تتجسد على نحو واضح وحاسم ومتميز ، فهى كيان معنوى ومادى بحق ، ان هذه الأمة هى مصر • ان مصر هى التكوين الثقافى والبشرى والجغرافى المباشر لى ، وهو المخصوص لى كذلك • ومن هذا السانج الذى يبيع القريب بالبعيد والأبعد ؟ وما سبيل الوصول الى البعيد والأبعد الا بأن تمسك بكلتا يديك على القريب أولا ؟ أولا يقال : « عصفور فى اليد » ؟ فعلى من يريد استقالة مصر وفناءها من أجل تكوينات جديدة بعضها فى علم الظنون ان لم يكن فى علم

الغيب ، أن يعرف أنه يخطئ الحساب • فلنمسك بمصر
ولنبداً بها ، ثم لنذهب الى الآخرين من بعد ذلك وليس قبله •
ان مصر هي مركز الدائرة ، ولن اذهب الى اطراف الدائرة
الا مسيطرا على مركزها • مرة أخرى : نتحدث عن مصر .
وعن الابداع الفلسفى المصرى ، لأن مصر هي الذات
المؤكددة القريبية الخاصة بى ، التى أستطيع مؤكداً ، بل
واجبا ، أن أتحدث عنها وباسمها ومن أجلها • وهل ينفى
الانتماء الى مصر انتماءات أخرى ؟ كلا بالحسم ، تماما
كما أن محافظة الثراء على ذاته لا تنفى انتماءه الى أسرة
صغيرة والى عائلة أكبر والى قرية أو مدينة أو منطقة
جغرافية أو وطن بأكمله أو أمة ثم الى صنف البشر
أجمعين • ولكن البؤرة الأساسية المؤكددة المضمونة هي
على المستوى الشخصى الفرد ذاته ، وهى على المستوى
الثقافى مصرنا • وابتداء من مصر ، فلنمض الى الآخرين ،
الى كل الآخرين ، وان مصر دوما لانفتاح على البشر •

٥٧ - ما هذه الدوائر الأخرى ؟ انها فى المحل الأول ،
والأكبر ، ما يسمى بالدائرة « العربية » ، نسبة الى اللغة
العربية ، والى نوع من الثقافة هو اسلامى فى مصدره
وحقيقته ، ولكنه عبر عن نفسه باللغة العربية ، والى نوع
آخر من الثقافة ، أهم وأهم بحساب المصير ، هو ذلك الذى
نريد أن نبنيه معا ، ولكنه سيكون بالضرورة فى وعاء اللغة
العربية ، التى يتعين اذن أن نعيد بناء معانيها ، مادام

يستحيل أن نعيد بناء مبنائها . هذه الدائرة « العربية » ،
التي نبعد عنها شبهة الوقوع فى شعوبية التحزب لعنصر
بشرى دون غيره ، هى التى تضم كل من يتحدث بالعربية
ويريد أن يضم مصيره الى مصيرنا بوصفنا مجموعة .
وفى مقدمة هؤلاء ينبغى أن يكون « العرب » حقا ، أى
جنسا ولغة ، وهم أهل شبه الجزيرة العربية من أقصاها
الى أدناها ، ثم كل الشعوب العتيقة التى بقيت من وراء
حركة التاريخ وهو لا يزال فى مهده ، من عراقيين الى أهل
الشام من شماله الى جنوبه ، الى أهل مصر ووادى النيل ،
الى أهل شمال أفريقيا من شرقه الى غربه ، وإلى امتداداته
الجنوبية فى جوف الصحراء شرقا وغربا . هذه هى
المجموعة التى تشكل الدائرة الأولى ، التى تمثل الاطار
الضرورى لكل تحرك مصرى ، فى مختلف صوره . ويعنينا
منه هنا الانتاج الثقافى على وجه خاص .

وان على الابداع الفيلسفى المصرى أن ينكر لمصر ، وأن
يفكر فى الآن نفسه لما يقترح أن تكون عليه ثقافة هذه
المجموعة فى المستقبل . لأن هذا هو ما يغفل عنه الأكثرون :
أن ثقافتنا « العربية » الجديدة هى الشئ الذى نريد أن
نصنعه معا ، والذى لا ندرك أطرافه ولا حتى بداياته الى
اليوم . وحين نفكر فى المستقبل ستنكمش الفروق الى
أقصاها ، وستزيد رقعة التوافقات الى أقصاها .

والدائرة الثانية هي الدائرة الأفريقية ، وهي ظهر
مصر الاستراتيجية ، والحديث عنها يحتاج الى تخصيص
ليس هذا مكانه . ويرتبط بهذه الدائرة - على نحو ما -
ما يسمى حاليا بدائرة « العالم الثالث » .

والدائرة الثالثة هي الدائرة الاسلامية . اننا بوصفنا
أفرادا ، ننتمى الى أمة مثالية ، أى أمة على مستوى
الانتماء المعنوي ، هي الأمة الاسلامية . كان هذا صحيحا
بالأمس ، وهو صحيح اليوم ، وينبغي أن يكون صحيحا
في الغد . فكيف لى أن أنزع عن نفسى مصدرا للقوة
الممكنة فى يوم قريب أو بعيد ، حين تتنادى التوافقات
ويصر صرير الاختلافات ؟ ولكن الدائرة الاسلامية كانت ،
بالأمس ، شيئا أكثر من دائرة الانتماء المثالى . لقد كانت
دائرة الانتماء الفعلى ، وهي من هذه الزاوية جزء جوهري
من قرائى ، له الأهمية نفسها التى لأجزائه الأخرى ، وقد
تزيد عند البعض . وهو فوق هذا كله حاضر بشكل حتمى
من خلال حضور اللغة العربية . ومن هنا كان هناك كثير
من التداخل بين الدائرة « العربية » والدائرة « الاسلامية » .
ولكن السؤال المهم هو : كيف يمكن أن تكون الدائرة
الاسلامية أفقا ممكنا للابداع الفلسفى ؟ ان الاسلام ليس
بحاجة الى فلسفة ، لأن سلطة الفلسفة هي العقل ، وسلطة
الدين سلطة الهية . ولكننا لن نهيم فى التصورات الخيالية .

ان الانسان الذى يصنع فلسفة بعقله ، لا يصنعها بمعزل
عن تجاربه الأخرى ، ومنها ماضيه ، وطبيعة تكوينه البيئى ،
والديانة السائدة فى ثقافته . وسيبقى الاسلام ماشاء الله
له ان يبقى .

الدائرة الرابعة هى الدائرة العالمية . ولكن العالمية
المقصودة هى تلك التى لم تصنع بعد ، وكل الأفكار المنتشرة
حاليا عن « العالمية » هى أفكار عن عالمية زائفة ، لأنها تخدم
سيطرة الحضارة الغربية فى الواقع . وينبغى أن نفرّد فى
هذا المنظور العالمى اهتماما خاصا بالجنح الآسيوى
الشرقى ، القريب منا نوعا ، كالهند وماحولها ، والبعيد
نسبيا ، كالصين وما حولها . وكل الدلائل تقول ان الصين
حليف استراتيجى ممكن لمصر على الدوام . ويحتاج
الحديث عن العالمية المنشودة الى مقال خاص .

٥٩ نخلص من كل ما سبق الى أن الإبداع الفلسفى
المصرى ينبغى أن يبدأ من الوعى بالذات المباشرة ، وهى
مصر ، وأن يتسع للوعى بامتدادات هذه الذات ، عربيا
وافريقيا واسلاميا ، بل وعالميا ، وهو المآل الأخير ، فعلى
الفيلسوف المصرى أن يفكر فى الآن نفسه للبشرية الجديدة
كلها .

٢ - هدم الأوهام : وهم الذوبان فى الغرب ، وهم الحضارة الواحدة ، وهم العقل الواحد :

٥٩ - يعتمد وهم الذوبان فى الغرب على وهم أوسع وأخطر هو وهم أن الحضارة واحدة ، وأن هناك شيئاً اسمه « البشرية » ، وأن البشر فيها سواء ، ومن وراء هذا وذاك وهم أساسى : أن العقل واحد .

٦٠ - والواقع أن السبب المباشر للذوبان فى الغرب هو تصور أنه لا قوة لنا الا على طريقة المسيطر فى هذه الأيام ، وهو الحضارة الغربية . ويترتب على هذا أن نأخذ لا مجرد أدواتها من مصانع وسلاح ووسائل ، بل كذلك ، وبالضرورة ، أفكارها وقيمها . وهذا هو الحال ، لأنه لا يمكن لثقافة أن تحاكي ثقافة أخرى الا بأن تموت . وحتى مع هذا الشرط فهى لن تستطيع أن تقلد الثقافة الأخرى الا على طريقة تقليد القردة ، أى فى رسومها الخاصة ، ولن تستطيع على أى الأحوال أن تصل الى ما وصلت اليه . كيف ذلك والجانب الكاثوليكي نفسه من الحضارة الغربية لا يصل الى مستوى ما وصل اليه الجانب البروتستانتى؟ ان الثقافة هى ما هى وحسب ، ولا يمكن أن ينقل منها شىء حقيقى ، والحقيقى فى الثقافة هو الأفكار والقيم . اذن لا امكان لكم فى أن تكونوا « مثل » الغرب فى شىء . أما الحديث عن « العصر الواحد » فانه حديث سانج لمن لا يدري أن العصر هو مفهوم حضارى ، فلا عصر الا فى اطار

الحضارة ، وما يكون بين حضارتين ليس الا تآنيا وليس « تعاصرا » ، تماما كما كان الشأن بين هارون الرشيد وشارلمان . ان واحدية العصر تعنى الانتماء بالضرورة الى الحضارة نفسها ، والا فلا تعاصر ولا معاصرة .

٦١ - والأصل فى هذا كله هو وهم الحضارة الواحدة، وهى أساسا دعوى الغرب ، لأنها تحقق مصلحته . ان تاريخ البشر على الأرض (ولا نقول تاريخ البشرية ، لأنه حيث لا حضارة واحدة على الأرض فلا « بشرية » هناك الا بالمعنى التجريدى المأخوذ اصطلاحا ليعنى خصائص مشتركة للبشر فى مقابل كائنات أخرى) - هذا التاريخ لم يعرف مطلقا الحضارة الواحدة التى تسود أطراف الأرض ، وكذلك الحال اليوم وبالأمس القريب ، مع هذا الفارق الكبير : أن هذه الأيام شهدت ظاهرة فريدة تحدث لأول مرة ، هى سيطرة حضارة واحدة على بقية الحضارات والمناطق فى مختلف أرجاء الأرض ، سيطرة عسكرية واقتصادية وثقافية ، ومن ثم انتشرت منتجاتها ، من أشياء وأفكار وطرائق ، واصطنعتها لنفسها فئات فى بقية الحضارات ، خضعت لتلك الحضارة ، أو اضطرت الى الأخذ بها دفاعا عن بقاء الذات . وهذا هو معنى ما أشرنا اليه من « العالمية » الزائفة ، التى تظهر فى هذه الأيام ، وما هى الا وجه مقنع للسيطرة الغربية .

٦٢ - ونأتى الآن الى المظهر الفكرى والفلسفى على وجه الخصوص لهذين الوهمين ، وهو يتمثل فى وهم ثالث اخطر ، لأنه أكثر مبدئية وبساطة ، ألا وهو القول بأن العقل الانسانى واحد ، وأنه يتطور ، مظاهره مختلفة ، ولكنه هو هو ، ومن ثم فإن منتجاته عند قوم تصلح لقوم آخرين حتما . ويفضى هذا كله الى أن هناك شيئا اسمه « الفلسفة » ، وأنها من نتاج ذلك « العقل » البشرى الموهوم . وصحيح أنها ، عندهم ، نشأت عند اليونان ، وأنعم بهم وأكرم ! فهم أكرم أهل « البشرية » المزعومة لهذا ، ولكن ذلك انما كان لحظ هؤلاء اليونان ، ولعبقرية خاصة أوتوها ، وورثها عنهم خلفهم ، وهم اليوم أهل الحضارة الغربية . ونحن نقول انه ليس هناك « عقل » واحد ، لأن « العقل » كلمة ، مجرد كلمة لا أكثر ، وهى قد تدل على « قدرة » على الادراك والسلوك ، وهذه قائمة حقا لدى جميع البشر ، ومن هذه الزاوية فان هناك حقا « عقلا واحدا » لدى جميع البشر . ولكن الكلمة تعنى شيئا آخر ، هو الذى يقصد اليه أصحاب الموقف الذى نحن بسبيل مناقشته ، وهم يخادعون ، أو يخدعون ، حين يخلطون بين المعنى السابق والمعنى الجديد ، الذى هو « مجموعة أفكار وتعميرات موضوعية ومنهجية على السواء » . ونحن ننكر أن يكون هناك عقل واحد بهذا المعنى ، لأن معناه هو قيام حضارة واحدة وثقافة واحدة لكل البشر ، وهو ما رفضناه فى الفقرة السابقة . أما من

يدعون ذلك ، فعليهم الاثبات ، ولن يستطيعوا . فهل كان « العقل » المصرى مثل السومرى ؟ بل هل فهم « العقل » الاسلامى « العقل » اليونانى ؟ بل نخصص ونقول : هل « العقل » اليونانى هو « العقل » الأوربى ؟ وهل المفكرون الاسلاميون المحدثون ينطلقون من « عقل » هو بالضبط « كعقل » مؤسسى المذاهب الفقهية السنية الأربعة المشهورة ، على سبيل المثال ؟ والأمثلة لاتحصى . ان العقل هو تعبير عن الثقافة ، فلا عقل الا فى اطار الحضارة وليس هناك عقل واحد ، ولا بشرية واحدة ، ولا حضارة واحدة ، ولا يمكن لأحد أن ينقل نتائج حضارة أخرى الا اذا أراد أن يصبح جزءا منها فى مقابل اعدام الذات ، وهو حتى فى هذا لن يستطيع ، وسيكون مكانه المؤخرة المستهلكة لمنتجات الحضارة . ولن يستطيع أن يقود بله أن يشارك فى الانتاج الثقافى مجرد مشاركة . هل تنظرون الى هنود أمريكا الشمالية ؟ والى مواطنى جزر المحيط الهادى الخاضعين للسيطرة الأمريكية ؟ والى مسلمى الاتحاد السوفيتى ؟

٦٣ - ان حضارة الغرب حضارة مختلفة ، وعدوانية ، ونحن حضارة وليدة بسبيل التكون . ولأول مرة فى تاريخ البشر تبدأ حضارة بالنظر الى ذاتها والى توجه عالمى حق . ومعنا ، وعلى أساس جديد حقا ، سوف تبدأ العالمية الحققة .

٣ - ارادة الرؤية الواضحة :

٦٤ - لا ابداع بغير ارادة • والمستوى الأهم من مستويات الارادة في هذا الاطار هو مستوى ارادة الرؤية الجديدة الجذرية شموليا ، وهو ما نسميه اختصارا بالرؤية الواضحة ، وليس من اليسير تنفيذ برنامج هذه الرؤية النفاذة ، لأنها قلب للمعتاد ، ومخالفة لأهل العصر • وهى رؤية صعبة لأنها جديدة ، ولأنها تتطلب التعود عليها • وكيف ذلك وسبيله انتزاع الفكر من استخدام الطرائق المعتادة ؟ ومع ذلك فان فضل المبدع يظهر فى هذا الميدان أول ما يظهر • وكثيرا ما يصيبه الضرر ، على انحاء شتى ، نتيجة لهذه الارادة ، ارادة المختلف • ولكن انتصاره ، وديمومة الثقافة التى ينتمى اليها ، هما ثمن هذا الاصرار ، الذى تمثله أفضل تمثيل العبارة المنسوبة الى عالم الفلك الغربى جاليليو (١٥٦٤) (١٦٤٢ م) ، الذى خرج من جلسة محاكمته بسبب هرطقة جاء بها بزعم أن الأرض تدور حول الشمس وحول نفسها ، فى حين كانت الكنيسة الكاثوليكية ، اعتمادا على التوراة اليهودية ، ترى أنها ثابتة ، وأنها مركز الكون - خرج من محاكمته ليقول : « مع ذلك فانها تدور ! » •

والوجه الآخر، أو الوجه السلبي، من ارادة الرؤية الواضحة النفاذة ، هو ارادة رفض الوضوح الكاذب ، فعلى الابداع

الفلسفى المصرى أن يصسر على رفض ما هو فى أعين
الأكثرين ، بل فى أعين الجميع ، وضوح كالشمس ، من
نحو واحدية الحضارة ، ووحدة العصر ، ووحدة العقل ،
وضرورة الخضوع للغرب (وأى أخذ بأفكار الحضارة
الغربية وقيمها ، والتعلق بهذا أى تعلق ، هو خضوع
لـلغرب ، مهما حاول المسفستون) .

ونشير الى أنه من أهم موضوعات جلاء ارادة الرؤية
الواضحة الاهتمام يتعدى الواقع الغث الذى نعيش فيه ،
وبمشكلات الدفاع عن الذات التى تلجئنا الحضارة الغربية
اليها لالهائنا عن الابداع ، وذلك من أجل ادراك مشكلات
المستقبل الكبرى ، حتى نستطيع ملاقاته على نحو ايجابى .
ومن أهمها نتائج الثورات العلمية والتكنولوجية الهائلة ،
ونضعها بصفة عامة فى اطار : « الانسان والآلة » ، والآثار
السلبية الخطيرة الناتجة عن سيطرة الحضارة الغربية
العدوانية (على الطبيعة وعلى الآخرين بل على ذاتها) ،
بما يمكن أن يؤدي الى جنون « الانسانية » المستقبلية اذا
استمرت سيادة الحضارة الغربية .

٤ - شروط موضوعية أساسية :

٦٥ - لن نستطيع أن نفصل ، فى هذا المقام ، فى تعداد
ما نرى أنه شروط موضوعية وعامة وأساسية ، ونقتصر
على الاشارة الى بعض من أهم هذه الشروط :

(١) توافق المناخ الاجتماعى - السياسى ، القائم على الحرية وعلى احترام الفكر ، وعلى احترام حقوق الاختلاف فى الرأى ، وعدم ممارسة الارهاب من أى مصدر كان .

(ب) أن يقوم المجتمع فى كليته بالتحرك المنتظم الى وجهة متسقة تحت راية الاتفاق على الحد الأدنى من المبادئ والأغراض (أهمها ما يتعلق بالعلاقة بين المجتمع والفرد ، لمن السيطرة فى المجتمع ، الاستغلال والعدالة الاجتماعية) . وقد سبق أن أشرنا الى أن الابداع الخاص جزء من حركة الابداع العام .

(ج) السيطرة على طوفان المعارف ، ويستدعى هذا ليس فقط السيطرة على كل المعارف التى تظهر فى المجتمعات الأخرى ، بل كذلك تنظيم اتصال المعارف وتهيئة سبل الحصول عليها بأيسر طريق . ان نظرة الى حال مكتبات القاهرة العامة تدل على أننا فى هذا المجال تحت مستوى الصفر .

٥ - شروط خاصة بالابدع بوصفه فرداً :

٦٦ - يمكن أن نقول ان الافتقار الى الاستقلال هو ظاهرة عامة بين منتجى الكتابات الفلسفية فى مصر الحديثة الى اليوم ، فهناك تبعية حتى فى ميدان البحث التاريخى الفلسفى ، الا فى رسائل جامعية وكتب نادرة

تعد عدا • وهناك كذلك ، كما أشرنا على سبيل المثال ،
تبعية فى ميدان الرأى الفلسفى • والمتبوع فى العادة هو
الحضارة الغربية • اننا نريد استقلالا تاما للمبدع الأصولى
بازاء أساتذته وبازاء التراث ، وعلى الأخص بازاء الفكر
الأجنبى • على أن وسيلة هذا الاستقلال الكبرى ، وان لم
تكن الوحيدة ، هى ارادة الاستقلال ، وهى تتطلب استعدادا
شخصيا ، ومناخا عاما يؤكّد الاستقلال ، والا فلا استقلال
ولا تهيئة له بارادته فى مناخ يعلن فيه أحمد لطفى السيد
مثلا أن الحضارة واحدة ، وأن الأوربيين أساتذتنا ، ولا فى
مناخ يراد فيه فرض فكرة أن العصر وأحد ، وأن الغرب
هو موجه العصر ، والعلم علمه ، والفكر فكره ، وله
القوة والبأس ، ولا فى مناخ سياسى واقتصادى نخضع
فيه للتعليمات تاتى من باريس أو لندن أو موسكو أو
واشنطن • وهكذا فان ارادة الاستقلال عند مشروع المبدع
الأصولى ينبغى أن تساندها ارادة الاستقلال ، وتحقيقه
عند الأنا الجمعى ، والا صعب الصراع على الأول • هذا
وقد سبق أن أشرنا فى القسم الأول التمهيدى الى سمات
للمبدع واتجاهات للابداع يمكن تطبيقها هنا ، ولعلنا نعود
الى ذلك بتفصيل أوفى فى دراسة شاملة •

٦ - شروط منهجية :

٦٧ - على الرغم من أن هذا الموضوع مهم وحيوى ،
وأنه ينبغى أن تكون له الصدارة بين الاهتمامات الفلسفية،

فانه مهمل في كتابات الكتاب المصريين . وهناك شروط منهجية على مستوى المجتمع كله ، من أهمها نقل المعارف التي لا يمكن للابداع الفلسفي الحديث أن يقوم الا بعد السيطرة عليها ، وأهمها نقل كم المعارف الغربية ، فضلا عن مسرفة تراثنا ، في تقسمه الاسلامي وسابقه القبطي والمصري القديم ، وتوفير سبل البحث والدراسة والانتاج أمام القادرين عليها ، وتوفير اطار الهدوء والتركيز اللازمين لكل ابداع . ومن الظاهر أن هناك ما يشبه المؤامرة لمنع تحقيق هذا كله على المستويات كلها . وهناك شروط منهجية موضوعية ، من أهمها حسم الأمر بخصوص الموقف من تاريخ الفلسفة ، ورفض الموقف الخاضع الذي يريد أن يرى الفلسفة في تاريخ الفلسفة ، وهو موقف يشكل ضدا رعائقا لكل امكان للابداع والاستقلال . ومنها كذلك رفض كلمة « الفلسفة » ذاتها ، مادامت سوف تؤدي بنا الى وهم واحدة العقل والثقافة ، واستخدام تعبير « الأصوليات » بدلا منها . وهناك شروط منهجية على مستوى المبدع الأصولي نفسه ، من أهمها أن يكون قادرا ، بعد الاحاطة بكل المعارف بقدر الطاقة والامكان ، على وضعها جميعا بين « قوسين » ، ليبدأ ، لا من رأى هذا أو ذاك ، بل مما نسميه « نقطة الصفر المنهجي » ، أي كأنه ينظر الى الوجود لأول مرة ، وكأنه أول ناظر، وفي خلال هذا كله ينبغي أن تتعلق عيناه بالمستقبل ، لا أن تنغلقا على الماضي .

٧ - البدء من فلسفة فى الحضارة :

٦٨ - لازلنا نقول : « الحضارة الغربية اليوم ، وغدا ، فى مرحلة أزمة ، وهذه الأزمة ستتؤدى بها حتما الى مصيرها الضرورى ، وهذا المصير الضرورى هو الانهيار » (٢) . ونضيف أنه لا بد كذلك من تحديد موقفنا من ماضينا ، الى جانب تحديد موقفنا من الحضارة الغربية ، مع بيان نظرتنا الى المستقبل . هذه التحديدات هى ما يشكل أهم موضوعات فلسفة الحضارة أو أصولياتها ، التى نرى أنها البداية الضرورية الايجابية لكل فلسفة مستقبلية فى مصر . فلن تقوم فلسفة أو أصوليات على الحق الا بعد تحديد اجابات مفصلة مدعمة عن هذه الأسئلة : من نحن ؟ من كنا ؟ من معنا ؟ من هم ؟ ما علاقتنا بكل هؤلاء؟ وماذا نريد أن نفعل لأنفسنا وللخيروللانسانية؟ وما شروط قيام العالمية الحققة ؟ الى غير ذلك من أسئلة أساسية .

خامسا : استشراف للمستقبل : ماذا نريد ؟

٦٩ - اذا صرفنا النظر عن بديل ينادى بهقوم تبلدت حاستهم التاريخية ، وكادوا أن يكونوا قد فقدوا صلتهم بعالم الوقائع ، وهو بديل الذويان فى الاتجاهات الماضوية، فلا يكون هناك أمامنا الا بديلان : اما الابداع ، فى كل ميدان ، واما التبعية للغرب ، تبعية مطلقة ودائمة .

وما يؤسف له أن بديل التبعية هو الذى تحتل مظاهره مقدمة المسرح فى حياتنا فى مختلف جوانبها ، وعلى أنحاء شتى ، ان ايجابا أو حتى سلبا . ونقصد بالسلب هنا أنه حتى عندما تقوم محاولات تراثية فانها تبدأ من منطق الدفاع : « لسنا أقل من الغرب ! » . وهكذا فان الحضارة الغربية هي نقطة البدء فى هذا التيار الغامر ، ان ايجابا وان سلبا (والواجب أن يكون الوجود من جهة ، وذاتنا القومية من جهة أخرى ، هو نقطة البدء) . وليس هنا مجال التفصيل فى قصة هذا الوضع المحزن الذى نغرق فيه ، ونكتفى بالإشارة السريعة الى القضية الأساسية : نعم لاند من أخذ أشياء عن الغرب ، ولكن من أجل الدفاع عن انفسنا ضد هجومه وبأسلحته . وقد حدث هذا مرات فى حضارتنا وفى لقاء الحضارات الأخرى . وهذا ما نسميه باسم « الأخذ عن الغرب تكتيكيا » (أو وسائليا) ، وهو قصد النهضة المصرية حتى السبعين عاما الأولى من القرن التاسع عشر الميلادى . أما أن يتحول الأخذ عن الغرب الى « استراتيجية » (أى هدفا لذاته) ، وهو ما نادت به بجلاء اتجاهات الليبرالية المصرية بقيادة أحمد لطفى السيد ، فانه اما استنتاج خاطيء ، واما سوء رؤية ، واما تزوير للإرادة المصرية الجوهرية ، أو كل هذا مجتمعا .

٧٠ - ذلك أن الأخذ عن الغرب استراتيجيا ، أى بوصفه هدفا فى حد ذاته ، يقوم على أخطاء شنيعة لاتكاد

تدركها الأغلبية • وإذا أدركتها قلة نادرة فما أسرع ما يصرفون وجوههم عنها ، لأن استخراج نتائج ذلك الادراك يعنى تغيير وجهة حياتهم بأسرها ، ووجهة حياتهم هى العيش على فتات تافه مما تلقى به الحضارة الغربية ، ومما يقتنصونه بجهد جهيد ويظنونهم الصيد الثمين • ومن أعظم هذه الأخطاء :

١ - وهم أن الانسانية كيان قائم ، فى حين أنها مجرد تصور فى الذهن ، وأن القائم حقا انما هو أمم أو شعوب على الأقل ، وما بينها من اختلافات نتيجة «للثقافة» هو أقوى كثيرا ، وبما لا يقاس ، مما قد يبدو بينها من اتفاقات نتيجة لواحدية التكوين الطبيعى البيولوجى • ونوجز فنقول ان هذا الوهم تلعب على وتره الحضارة الغربية ، لأنها هى المستفيد الوحيد منه • فاذا كانت هناك انسانية واحدة مزعومة ، فانها هى « قممتها » رأعلى ممثليها ، ومن ثم فانها هى موضع التقليد ولها مكان القيادة • ومن الطريف أن الحضارة الغربية تلعب كلا اللحنين المتناقضين حسبما يعن لها ، وحيثما تكون فائدتها : لحن الانسانية الواحدة ، ولحن التفرد والتفوق الغربى الساحق (وعلى النموذج نفسه يلعب أصحاب صهيون على وتر الضعف الشديد الى حد الانسحاق ، وعلى وتر التفوق العرقى المذموم من قبلهم تبيل غيرهم) • والذين لم يدرسوا منا التاريخ فى تطور ثقافات بنى

الانسان لا يدركون أنه هيهات لهم أن يقتربوا من الحضارة الغربية ، بله أن يصبحوا « مثلها » ، أو أن يصبحوا هم والحضارة الغربية ذاتا واحدة ، لا لأن الثقافة الغربية شيء فوق الطاقة ، بل لأنها « آخر » تام ، وكفى .

٢ - وهم أن « العقل » واحد ، بعد كون « الانسان » واحدا ، وأن هناك تطورا يتقدم عليه ذلك « العقل » الانسانى المزعوم ، بخطى متتدة لكنها ثابتة ، من خلال مختلف الثقافات ، الواحدة بعد الأخرى ، حتى وصل الى أعلى تعييناته فى الفكر الغربى ، بعلمه وفلسفته وقيمه . ونحن نرفض وهم هؤلاء السذج فى وجود « فكر » واحد و « فلسفة » واحدة (وبدايتها بالطبع عند اليونان آباء الغرب !) ، بل حتى « علم » واحد . ان ذلك « العقل » الانسانى المزعوم انما هو وهم كبير ، هو مجرد تصور فى الهواء ، والقائم حقا هو فكر الثقافات ، وهو بالضرورة متنوع ومختلف بحكم اختلاف الثقافات بالضرورة . وعلى ذلك فلا يمكن ، فى الواقع والشرع معا ، وعند من يدرك أنه يريد أن يدرك ، أن تأخذ ثقافة فكر ثقافة أخرى ، فهذا زرع لعضو غريب فى جسم غريب ، وان حدث ، ظاهريا ، فسرعان ما يلفظ ، كما حدث لزرع الفلسفة اليونانية فى جسم الثقافة الاسلامية ، فقد استمرت حيناً ، ثم لفظت ، وكان لابد أن تلفظ . أما حين يقدر له أن يبقى الى أجل

طويل ، فلا يكون له من أثر الا افناء الثقافة التي يدخل عليها الفكر الغازي ، كما حدث لثقافات سكان الأمريكتين الأصليين ، وسكان افريقيا جنوبى الصحراء ، وهو مايعنى فى الواقع افناء التجمعات الحضارية ، سواء أكانت قبيلة أم شعبا أم أمة . وهذا هو المصير الذى ينتظرنا ، طال الزمان أم قصر ، اذا نحن اتبعنا دعوى الجهل وقصر النظر التى نحن بصدها .

٣ - وهم « العصر » الواحد بيننا وبين الحضارة الغربية . والواقع أنه لا عصر واحدا الا بين ابناء ثقافة واحدة . وهكذا فان الطهطاوى وخير الدين التونسي متعاصران ، نعم ، والبياتى وصالح عبد الصبور متعاصران ، نعم ، وكاتب هذه الكلمات وقراؤها فى فاس وفى صنعاء وفى بغداد متعاصرون ، نعم ، ولكن ليس بيننا معاصرة مع أعضاء الحضارة الغربية اليوم . وهل كان الطهطاوى وكارل ماركس « متعاصرين » ؟ وحتى حين يأتى سارتر الى القاهرة ، ويتحلقون حوله فى وهم المعاصرة الزائفة ، فلا هو سمع منهم ، ولا هم فى الحق كانوا قادرين على « التفاهم » معه ، وانما معاصروه هم مالرو وأنورنو وآير ومورافيا ومن شاكلهم . ان ذلك الذى يقع فى براثن وهم « المعاصرة » المزعومة هو ذلك الذى لم يدرس من التاريخ الا أحداثه ، وفاته منظور « الثقافات » ، وأن الوقت لا يعد بحركة عقارب الساعة ، بل فى اطار مرجع أهم هو

الثقافة • ورب « ملاح قضاء » أمريكى أو روسى يضرب على أزرار فى مركبة تبعد عن الأرض فى السماء آلاف الأميال ، ويعيش معه فى « اللحظة » نفسها فى بعض قرانا بائع ملح يهش الذباب ويبيع فى يومه بقروش ولايدرى قيمة الوقت أو فعل ، انهما لايعيشان فى « العصر » نفسه ، بل فى « الآن » نفسه أو اللحظة وحسب ، تماما كما كان هارون الرشيد وشارلمان : عاشا فى « الوقت » نفسه وليس فى « العصر » نفسه •

٧١ - ونصدر عن اعتقاد راسخ حين نقول ان نشر هذه الأوهام الخطيرة ، التى تنتشر بين من هم فى أقصى اليمين الفكرى ومن هم فى أقصى اليسار ، لا يفيد الا سيطرة الحضارة الغربية ، بل هى نفسها مصدر هذه الأوهام وهى ناشرتها • ومن هنا ندرك مدى « التبعية » الموضوعية لأجهزة الاعلام ، وكثرة غامرة من الكتاب من كل لون ، والباحثين الأكاديميين فى معظم الفروع • ان خطة الحضارة الغربية ، والبعض قد يسميها « المؤامرة » ، هى الهاؤنا الدائم عن ذاتنا ، أى عن الابداع • وأوثق وسائل هذا الالهاء هو وضع وجودنا المادى ذاته موضع الخطر • يفعلون هذا فى ميدان السياسة بعدوانهم المتكرر منذ ١٧٩٨ م ، ويحركون الخيوط من وراء الستار ليكون هذا حال كل فرد فى حياته اليومية اليوم ، فيضلون المفكر عن سبيل الابداع الذى يشترط خلوص البال وتوافر المادة

الفكرية وامكان التركيز والتفرغ . وهكذا تتشابه الحلقات
من الأمة الى الفرد ، من الحرب الى الفكر ، من الأمس
الى اليوم الى الغد .

٧٢ - ان خطر بديل التبعية للغرب متعدد المناحي
متشعبها . والتبعية ليست خطرا علينا وحسب ، لأنها نفى
للذات ، بل هي خطر كذلك على الغرب ذاته ، وعلى مستقبل
بنى الانسان . ذلك أن الغرب قد دخل منذ عشرات السنين ،
منذ حربيه الكبرى الأولى التي سماها « عالمية » (١٩١٤ -
١٩١٨ م) في مرحلة التحلل ، بعد أن بدأ في الانهيار
منذ لحظة وصوله نفسها الى قمته العظمى ، مع الثورة
الصناعية في انجلترا ، والثورة اسياسية الفرنسية في
١٧٨٩ م ، ومع جوته وبيتهوفن وهيغل في ألمانيا . ويجب
الاتخذنا قوته المادية ، اقتصادا وعسكرا وعدوانا ، فحال
الامبراطورية الرومانية والدولة العثمانية في أخريات
أيامهما يدلان من لايعرف على أن القوة المادية لاتعنى في
ذاتها الشيء الكثير . والآن ، اذا تمت للغرب السيطرة
الثقافية على سكان الأرض جميعا ، فان أولى نتائج هذا
هي فقدان أمل الغرب ذاته في الانتباء من حضارته
العدوانية القتالة ، التي تعتدى على الانسان وعلى الطبيعة ،
بل على ذاتها . وثانية النتائج هي دخول بنى الانسان في
بنيان حضارى لن يؤدي بالجنس البشرى إلا الى الجنون
أو الانتحار ، ويمنع فوق هذا كله من امكان قيام «الانسانية»

الحققة ، لأول مرة ، يبنيها بنو الانسان جميعا ، متعاونين متساوين ، ليس لاثنين منهم أو ثلاثة وحدهم حق النقض (الفيتو) المزعوم ! ان انفلاتنا عن تبعية الغرب هو خير لنا ، وخير للغرب ذاته ، وخير لبنى الانسان ، والأساس الوحيد لاقامة الانسانية الحققة .

٧٣ - من المسئول عن خط التبعية للغرب الذى نحن فيه منذ النصف الثانى من عصر الخديو اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩ م) ؟ أشرنا الى مسئولية الغرب ، ولكنها مسئولية النافخ فى النار ، العامل على الهاب شعلتها ، أما المسئولية الأولى والكبرى ، فهي مسئولية القادة منا . والقيادة ألوان وأنواع . وساذج من يتوهم أن القيادة السياسية هي أهم أنواع القيادات . صحيح أنها أبرز وأظهر ، لأنها تشعر بنفسها فى حياة كل يوم وعلى مستوى التحرك المادى للفرد بأشكال مختلفة ، ولكن الصحيح أيضا أنها فى الوقت نفسه نتاج وموازاة لقيادات أخرى ، اجتماعية واقتصادية ودينية وفكرية . ونحن نقول فى وضوح، ان خطأ تعاضم قدر دور القيادة السياسية فى المجتمع المصرى الحديث ، منذ محمد على ، يعود الى من تركوها تتعاضم، حتى تظهر تلك الظاهرة المرضية التى نسميها بظاهرة « الحاكم المفكر » . ونقول فى صراحة ان أصحاب الرأى بوجه عام ، والقادرين على أن يكونوا أصحاب فكر بوجه خاص ، هم فى المقدمة الأولى لمن يتحمل المسئولية عن هذا الوضع المرضى ، الذى ينتهى

دائما بأصحابه وبمجتمعهم الى التهلكة ، كما رأينا مرة
ومرتين وثلاثا وأربعا منذ عصر محمد على الى الأمس
القريب • على المفكر الا يستقيل من أداء واجباته ، وعليه
التسلح بارادة الاستقلال عن كل سلطات المجتمع ، لأنه هو
فى المحل الأول المعبر عن عقل المجتمع وعن ضميره معا •
وسوف نعود من بعد للإشارة الى دور الارادة ، ارادة
الاستقلال ، و ارادة الابداع ، وهما وجهان لشيء واحد ،
والشيء نفسه •

٧٤ - ان نتائج خط التبعية واضحة لا لبس فيها ، وهى
تتجسد بيننا وتتشخص فى معظمنا : فى ملابسنا وفى
برامجنا التعليمية على السواء ، فى ضياعنا القومى وفى
ضعفنا أمام الأعداء ، فهى تدنى مستويات كل الأشياء ، فى
غياب رؤية لغدنا القريب فضلا عن البعيد ، وفى كلمة
واحدة : فى غياب الذاتية •

٧٥ - والبديل الآخر ، الابداع ، هو الضد الكامل
للتبعية ، فيه نكون نحن نحن ، ونذال احترام الذات أول
ما ننال ، ونجدنا نشارك مشاركة ايجابية وفعلية فى توجيه
مصائر بنى الانسان ، ونكون فى النهاية قادرين على قيادة
المطلب الضرورى القادم : انقاذ الانسانية ، وبنى الحضارة
الغربية ذاتهم ، من عدوان الحضارة الغربية ، ومن اتجاهها
نحو افساد حياة كل البشر •

٧٦ - ان أول أساس يقوم عليه اتجاه الابداع الجديد هو الارادة وليس العقل . ان العقل حساب، ولو تركنا العقل يحسب ويقارن ويفاضل الى ما لا نهاية لحلت الكارثة ونحن نحسب ، وانما دور العقل عندنا هو دور الممهد ، ببيان المدخل الحضارى لكل فلسفة مصرية مستقبلية ، بل للثقافة المصرية القادمة كلها ، ومركزه ادراك انهيار الحضارة الغربية ، وتبيان البؤرة المصرية الدائمة فى ذاتها وفى علاقاتها الجوهرية معا . وبعد ذلك يترك للارادة تحديد الهدف . والهدف هو التجديد الشامل ، وتقديم قيم جديدة لمصر ورفاقها على الطريق ، وللانسانية الجديدة من بعد .

أما دور العقل فيصبح المنفذ لتلك الارادة . ان بعض المعبرين عن « العقل » الواحد المزعوم يقولون : « ماذا لديكم من علم ومن فن ومن صناعة ومن زراعة ومن تنظيم ؟ لا شيء ، والغرب لديه كل شيء ، فخذوا منه كل شيء ، فهو النموذج ، وهو العصر » . والعقل عندنا يكتشف مغالطات ذلك الموقف ، والارادة تتخذ القرار : لن نتبع ثقافة الغرب : وسوف ننشئ ثقافةنا ، وفى المدخل الضرورى اليها فلسفتنا ، والعقل ينفذ مقتضيات تلك الارادة السامية ، فينشئ الفلسفة الجديدة ، والتنظيم الاجتماعى الجديد ، والعلاقات الاقتصادية الجديدة ، والقيم الجديدة فى كل ميدان ، والروح الدينية الجديدة ، والفن الجديد ، والعلم الجديد ، ابتداء من مبادئ جديدة ، ويحاول فى هذا كله ان يعيد خلق معانى لغة الضاد خلقاً جديداً ما أمكنه ذلك ،

لتبتعد عن أصلها الصحراوي ، ولتستطيع مجابهة عالم
التنظيمات المعقدة ، وخطر الآلة ، وسرعة التغيرات في
مختلف الميادين •

٧٧ - ان علينا في المشروع الابداعي الاصولي (أى
الفلسفى) أن ننزع عن كاهلنا مشكلات تقليدية فارغة من
الأهمية الحققة ، تنوء بها الدراسات الفلسفية ، وهى كلها
تنبع عن خطأ وهم « الفلاسفة الواحدة » ، وتظهر فى
الاستغراق فى تاريخيات تسيطر عليها أسماء أفلاطون
وأرسطو والفارابى وابن رشد وديكارت وهيكل وهيدير •

وشأن المستغرق فى هذه المسائل شأن « الغارق فى
شبر من الماء » حرفا بحرف • انما يتحتم علينا أن ننتبه
الى ابداعات الذات المصرية فى قديمها ، حين خلقت
الحضارة خلقا والسياسة والدين والأخلاق والفن ، وفى
حديثها ، والى المسائل الجوهرية فى التراث الاسلامى ،
بعيدا عن أحاييل لعبة الفلاسفة أو المتفلسفة المزعومين ،
وكذلك ، وعلى وجه أخص وأخص ، الى أهم مشكلات
المستقبل : الانسانيات (ومن خلالها معرفة الانسان وفعله
وعلاقته بالوجود) ، والصلة مع الطبيعة ، والموقف من
الآلة (وهى الخطر الأعظم لو كنتم تعلمون) ، ومشكلة
صراع الأجيال ، وصراع المرأة مع الرجل • وليكن موقفنا
واضحا : نحن لا نقول : اهملوا الماضى ! فما أبعد هذا
عنا ، بل نحن نقول : لنعرف كل الماضى ، على أدق وجه ،

ولكن لنقدم ماضيينا على ماضى غيرنا ، ولنبدل من نظرتنا الى منزى ماضى الآخرين تبديلاً ، ولنهتم بالمستقبل أضعاف ما نهتم بالماضى .

٧٨ - واذا نظرنا الى ما يجب على اتجاه الابداع الأصولى الجديد أن يتفرغ لبحثه ، بعد وضع مقدمات المدخل الحضارى الى أصولياتنا (فلسفتنا) الجديدة ، فانه التعرض لمسألتين لا نغالى فى بيان أهميتهما الجارفة : تحديد المصطلح الفلسفى الجديد ، نافضين عن كواهلنا ضفط النموذج الثرى ، ومراجعين للمصطلح الفلسفى فى لغة الضاد ، ناظرين اليه نظرنا الى مستودع موضوعى (بصرف النظر عن أهميته التاريخية) ، وناحتين من الألفباء مصطلحا أصوليا جديدا تماما ، وتحديد مواقف واضحة متزنة من المشكلة التى نسميها مشكلة « التراث المرجع » . فنحن ، حين نريد أن نبدأ مما نسميه « الصفر المنهجى » ، نفعل ذلك منهجيا ، وعلى مستوى التصور ، ولكننا ، بشرا ، لايمكن أن نبدأ من «صفر مطلق» حضاريا . فما التراث الذى ننطلق منه ؟ والى أى حد ؟ وعلى أى وجه ؟ ومن منظورنا القومى الذاتى ، فان لدينا تراثين كبيرين : التراث المصرى (بتشعباته) ، والتراث الاسلامى . وعلى مستوى الانسانية المستقبلية ، يكون علينا تحديد ما يكون عليه أمر الوثق من تراث أهم حضارات البحر

المتوسط وما تولد منها ، من ناحية ، ومن تراث حضارات جنوب آسيا وشرقها ، من ناحية أخرى •

٧٩ - ومن نافلة القول أن وضع العقول على خط اتجاه الابداع الثقافى والأصولى الجديد يتطلب ، من بين ما يتطلب :

- تعديل برامج التعليم وطرائقه تعديلا جذريا •
- تغيير برامج الجامعات وهيئات البحوث من برامج تتمركز على المنظور الغربى الى أخرى محورها الذات القومية •

- التهيئة المادية لأدوات المعرفة والبحث •
- تنمية الطبيعة الابداعية بشريا تنمية قصدية •
ولانستطيع التفصيل فى هذا كله فى هذا المجال •

ومن المهم - جوهرى - أن ننمى اتجاهات نفسية وعقلية تحل محل الاتجاهات القائمة ، التى تتمحور حول فكرة « العبودية » فى كل شىء • وهذه بعض اشارات الى اتجاهات جديدة تتمحور حول « الحرية » ، ومن ثم الابداع :

- النظر الى الوقائع من أمام وبأعين مفتوحة •
- الروح النقدية •

- روح المثابرة فى اطار النفس الطويل
- احترام المعرفة لذاتها والنظر الى قوة الفكر بوصفها سلطة فوق كل السلطات الاجتماعية
- روح التضحية والاخلاص عند المشتغل بالفكر
- مبدأ تعددية الفكر ونسبيته ومرونته
- اتجاه ارادة التمايز مع ارادة التوافق مع الآخرين فى الوقت نفسه
- ومن البين أن هذه الاتجاهات تعارض اتجاهات سائدة بيننا ، وهى على الضد منها تماما
- ٨٠ - والآن ، ماذا تريد ؟ نحن ، بوصفنا جماعة قومية ، نريد أن نحدد لأنفسنا بأنفسنا رؤية للأصول والغايات ، أى فلسفة أو أصوليات ، تحدد لنا الطريق ، بما يصنع نغمة أساسية فى كل مناحى الحياة ، يجعل منها وحدة واحدة متسقة من خلال التعدد والاختلاف • وبعبارة أخرى ينبغى على الابداع الفيلسفى المصرى أن يقدم لمصر خطة ، لحضارة التى لم تقدم الى اليوم فى حسم ووضوح وتفصيل ، ومن خلال هذا أن يهيىء لتكوين الجماعة القومية الأعم لكل الناطقين بالعربية ، ومن بعد هذا كله أن يهيىء للحضارة الانسانية حقا

اننا نريد الكرامة لا الخضوع ، الذاتية لا التبعية ،

الأمن والقوة لا الضعف والضياع ، القيادة لا الانقياد ،
السيادة لا العبودية ، أن نكون أنفسنا ، أن نسهم في انقاذ
العالم • ولن يتوافق هذا كله أو شيء منه الا بفلسفة
(أصوليات) ابداعية تعرف كل شيء وكل الآخرين ، ولكنها
تكون منا ، وتتحدث باسمنا ، ومن أجل أهدافنا • ان بداية
كل خطة هو وضوح الأصوليات ، ولن يقدم أصولياتنا
الجديدة الا الأحرار من كل تبعية أيا كان مصدرها •

الهوامش :

(١) نقصد دراسة الاستاذ الدكتور عثمان أمين بعنوان :
« رائد الفكر المصرى » ، وهى أوفى وأدق دراسة عن فكر الشيخ
محمد عبده ، بصرف النظر عن الموقف من تأويلاتها لذلك الفكر
ونصوصه .

(٢) أنظر مقدمة ترجمتنا لكتاب « الطبيعة والاغريق » ،
تأليف ارفين شرودنجر ، مجموعة الالف كتاب ، دار النهضة
العربية ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٧ .

أزمة الحضارة الغربية : توصيف وتأصيل

أولا : مقدمات :

١ - الغرب هو الخصم الدائم ، وهو اليوم ، مثل أمس وأمس الأول منذ حملة بوناپرت ، الخطر الداهم ، وهو المصدر الكامن المستمر للعدوان علينا منذ الاسكندر المقدوني . هذا هو الادراك المصرى الأساسى منذ مائتى عام ، ولكن أحيانا ما تغطى عليه الشوائب الخادعة أو ارادة بعض أصحاب المصالح فى الفوز ببعض فتات مائدة الغرب ، فيزينونه (أى الغرب) لنا ، ولكن الفكر الصريح

لا ينخدع ، وينبغى عليه ألا يخدع ، ومن واجبه وضاع
النقاط فوق الحروف . وهذا هو هدف هذه السطور : جلاء
حقيقة الغرب فى هذا العصر ، بوصف أزمته التى تخفى
على كثير من الافهام ، ثم بتأصيل هذه الأزمة ، أى بردها
الى أصول ووضعها على هيئة شبه منطقية .

٢ - ان هذا الحديث دعوة للتأمل ولإعادة التأمل ،
فى ظل الاخلاص والشجاعة والجسارة واطاعة مطالب
الروح النقدية . انه دعوة للتأمل والتفكر التأصيلى ، أى
ذلك التأمل الذى يدرك الكل ويحاول النفاذ الى الأصول
والمبادئ من خلال الظواهر الجزئية وتلك الخادعة ، بل
هو على الأدىق دعوة الى إعادة التأمل ، لأن موضوع
طبيعة الغرب وطبيعة علاقتنا به موضوع مسه الكثيرون ،
ومنذ جدنا العظيم رفاعة الطهطاوى الى اليوم ، لا لشيء
الا لأنه موضوع حياة ، ونرى أنه قد يكون على الأصح
موضوع حياة أو موت ، لأننا مهددون بالفناء ، كذات
جمعية ، أو على الأقل بالانسحاق تحت أقدام السيطرة
الغربية . ان إعادة النظر فى جوهر الحضارة الغربية
تتطلب الشجاعة العظيمة ، ولكنها الشجاعة التى يوجبها
الاخلاص . وعلى كل منا أن يسأل نفسه : لمن نخلص ؟
اننا نخلص لمصر وللمصريين ، ونخلص لأعضاء التجمع
الثقافى الجديد الذى يمتد من المحيط الى الخليج مستخدما
لغة الضاد ، بل ونخلص لأعضاء الجماعة الغربية أنفسهم

ولبقية أعضاء العائلة الانسانية ، وهذا الاخلاص تحمل
لمسئولية النصيح الرشيد والاشارة الى المصالح ، وفي
مقدمتها بقاء الذات . ولكن هذه الشجاعة التي يحتمها
الاخلاص ، تتحول الى جسارة اذا ما كانت تعرض ما لا
يريد الأكثرون أن ينظروا اليه ، بل أن يوجهوا اليه أنظارهم .
مجرد توجيهه ، بينما هو الواقع الحقيقي وما يحيطون به
رؤاهم أن هو الا وهم وخداع . انها جسارة الاعلان عن
الاختلاف الجوهرى ، والاستعداد للخلاف المبدئى ، مع
الغالبية . ولكن حين يكون ما فى الميزان هو المصلحة
العظمى ، فان جسارة الاختلاف تصبح واجبا حتميا وليس
مجرد ترف فكرى تحدوه الرغبة فى التمايز . وما نأمله
من قارئنا هو أن يتسلح بكل أدوات الروح النقدية ، التي
تتطلب أول ما تتطلب ألا نظن أن ما عليه أفكارنا صحيح
أبدا ومطلقا ، انما الروح النقدية تنطلق من مبدأ امكان
صحة المغاير حتى يظهر الدليل .

٣ - ان الحديث عن الحضارات موضوع للمؤرخ
وللمصلح الاجتماعى ولغيرهما ، ولكنه كذلك موضوع
للحديث الفيلسفى . ان وظيفة الفيلسفة ليست تقديم معارف
عن بعض الوقائع ، كما هو حال علم التاريخ أو علم
الانسان أو غيرهما ، وانما هى تقدم نظرات شمولية
أصولية ، وعلى ضوء هذه النظرات نفهم ونفسر ، ثم نحدد
من بعد ذلك سبل العمل ونختار ونرفض ، ونريد ولا نريد .

وعلى هذا ، فإن ما نقدمه هنا ليس عرضاً تاريخياً ولا دراسة انثروبولوجية ، وإنما إطار عام للتفسير وطريقة للنظر تستطيع تسليطها على عشرات الوقائع والمظاهر ، فنتخذ معنى جديداً على ضوء الإطار الشمولى التأسيلي العام الذى نقترحه .

٤ - أن ما تضيفه الفلسفة فى هذا البحث على المستوى المنهجى أو ما قبل المنهجى ، هو رفض الموضوع الزائف الذى يوحى الى الأكثرين بأن الغرب قوى قوة فائقة ، وبما يؤدي الى وجوب الخضوع له ، أو على الأقل السير على طريقه .

٥ - ونحن نعتزف أن موضوع توصيف أزمة الحضارة الغربية وتأصيلها موضوع خلاقى ، ليس فقط لأنه يتناول عدداً ضخماً من الظواهر جملة واحدة ، بل وكذلك لأنه ينتهى الى تنبؤات لا سبيل الى التحقق منها الا بعد عشرات من السنين وعشرات ، هذا فضلاً عن تدخل الميول الشخصية والأهواء والآمال . ولكننا نود أن نوضح الأحكام على محك دروس التاريخ السابقة من جهة وإدراك أوجه التصالح العليا من جهة أخرى ، ومن هنا أهمية اتجاه « الاخلاص » ، وهو وطنى وأخلاقى وعلمى معا ، الذى أشرنا اليه عند مفتتح هذا الحديث .

٦ - ولعله من المفيد فى هذه المقدمات أن تؤكد على

رفض توجهات « الروح القطعية » ، التي تؤدي الى اعتبار
أن موقفى أنا هو وحده الصحيح ، وهى من هذه الجهة
تعارض الروح النقدية ، كما تؤدي الى ظن أن موقفى أنا
صحيح لوحده والى الأبد صحة مطلقة • بعبارة أخرى ،
فإننا نود من القارئ أن يرفض بادئ ذى بدء القول
بالمطلق فى المعرفة ، فكل معرفة معرضة لأن تخطيء ، وكل
معرفة معرضة لأن تجيء بعدها معرفة أوسع منها نطاقا
فتظهر جزئية فى هذه الحالة ، وكل معرفة قابلة لأن توجد
الى جوارها معرفة مقابلة عن نفس الموضوع ولها نفس
نصيب الأولى من دواعى الاحترام بل وادعاء الصحة •
فنرجو من القارئ أن يقبل ، من حيث المبدأ ، أن
الأفكار السائدة عن قوة الحضارة الغربية وأبديتها ، والتي
نعارضها فى هذا البحث ، أفكار يمكن أن تكون غير
صحيحة •

٧ - ونخصص وجها من أوجه القول بالمطلق فى
المعرفة ، هو القول بما يمكن أن نسميه «بالمطلق التاريخى» ،
وهو يمس فى الحقيقة المعرفة والواقع التاريخيين معا ،
ويؤدى الى وهم أن القائم الآن قائم الى الأبد • (وتطبيق
هذا على الحضارة الغربية هو وهم أنها الحضارة الخالدة
لا تبديل لها ، وأن مبادئها وعلمها وأخلاقها هى وحدها
الصائبة • الخ •)

وعلى الضد من هذا فإنا نؤكد على مايمكن أن نسميه

بمبدأ « التجدد التاريخي » ، لأن الوقائع وحدها ، فضلا عن الاعتبارات النظرية ، تدل على أن التاريخ حامل بالجديد المختلف والثورى دوما ، ولا ثبات الا على نحو مؤقت نسبي . وربما كان مبدأ التجدد التاريخي هذا وجها من أوجه مبدأ أعم هو مبدأ سيادة الحركة على العالم الانساني .

٨ - لابد من التاكيد أن أحد أهدافنا هو الامسك بالحقيقة ، لأن ما لا يقام على الحقيقة لا قيام له ، ولهذا فاننا لا نحاول فى هذا الحديث اثبات وجهة نظر غريبة لأنها كذلك وبهدف التميز ، بل نحاول تحرى الحقيقة حتى وان تكاسل الأكثرون عن القيام بذلك ، وقنعوا بالظاهر الذى تنشره الحضارة الغربية عن ذاتها ولمصلحتها . وينتج عن هذا نتيجة ذات أهمية : ذلك أننا سوف نهتم بوصف أزمة الحضارة الغربية وبتأصيلها ، ولن نخلط هذا لا بنقدها ولا بالحكم عليها حكما تقييما أيا كان .

٩ - اننا نحاول تقديم طريقة للنظر فى طبيعة الحضارة الغربية وطبيعة وضعها الحاضر (الذى هو وضع أزمة كما سنرى) ، ولكننا نعى أن هناك طرائق أخرى للنظر فى طبيعة أزمتها ، توصيفا وتأصيلا ، ومن هذه الطرائق النظرية الماركسية فى اطار النظرة الاشتراكية بعامة ونظريات مفكرين من أمثال اشبنجلر وتوينبى ، والمنظور الدينى المسيحى ، وغيرها . ولكل طرائق النظر هذه قيمة

متساوية من حيث المبدأ ، ويكون التفاضل بحسب الشمول والتوافق مع الوقائع وبمدى جوهرية النظرية ، فضلا عن اثبات التطورات التاريخية اللاحقة لها أو عدمه .

١٠ - ونحدد من الآن المنظور الذي نأخذ به فى النظر الى ظاهرة الحضارة بصفة عامة : انه المنظور العضوى ، الذى يعنى اقامة مشابهة ، ولكنها مشابهة جزئية وتقترب أحيانا من المجاز ، ما بين كيان الحضارة والكائن الحى ، بما يؤدى الى القول بأن الحضارة كيان كلى (وهناك من يرفض من البداية محض كون الحضارة كيانا من هذا النوع) يولد وينشأ وينضج ويزدهر ثم يصل الى أزمة الشيخوخة بما يقترب به الى الانهيار المؤدى الى الموت بالضرورة طال الوقت أم قصر . ولا نأخذ بهذا المنظور الا لأنه بدا لنا مطابقا لوقائع ظهور الحضارات واختفائها من جهة ، ولقدرته على مساعدتنا على فهم أكبر عدد من ظواهر التطور الحضارى من جهة أخرى . ويحتاج تفصيل القول فى النظرة العضوية وتبرير الأخذ بها الى اطالة وإفاضة ليس هذا مكانها .

١١ - ونريد أن نؤكد من الآن على مبدأ التمايز بين الحضارات ، أى حق الحضارات فى الاختلاف بدون اعلاء لواحدة على أخرى ، وهو مايفترض تعدد تلك الحضارات ابتداء ، وعليه فاننا نرفض من الآن وهم الحضارة العالمية الواحدة .

١٢ - لقد اكدنا من قبل على فكرة الشمول والكلية ،
وهي تعنى ، ضمن ماتعنى ، ضرورة الاهتمام بشتى مظاهر
الانتاج الحضارى ، من سياسة واقتصاد وحرب الى اخلاق
وفكر وفن وعلم ودين الى تفضيلات الوان الطعام وطرائق
الملبس وقضاء اوقات الفراغ . ويعنى مبدأ الشمول والكلية
كذلك ان هذه التعددية فى المظاهر انما تدل فى النهاية على
عدد أساسى من المبادئ الجوهرية التى تحدد ما قد نسميه
« بروح الحضارة » ، أى أسسها واتجاهاتها الأولية .

١٣ - ولابد من تأكيد مقابل : فالنظر الى الحضارة
فى شمولها وکليتها انما يعنى زحانيا ادراكها فى خلال
مسار طويل قد يبلغ المئات من السنين ، بل هو قد بلغ
الآلاف منها فى حالة حضارتنا المصرية القديمة . وعلى
ذلك فاننا لا نهتم كثيرا فى نظرتنا الى احوال الحضارة
الغربية لا بالجزئيات ولا بعدد محدود من السنين ولا بما
يحدث هنا والآن ، وانما ننظر اليها فى مجمل تطورها
جوانب وازمانا معا .

١٤ - ونعيد صياغة ما جاء فى الفقرتين السابقتين من
منظور مختلف بعض الشئ : فان معالجتنا لموضوع أزمة
الحضارة الغربية سيركز على العموميات وعلى المجموعات
الكبرى وليس على الاستثناءات ولا على التفاصيل
الجزئية .

١٥ - ان هدف تحسرى الحقيقة والبعد عن المنظور التقييىمى يفرض علينا أن يكون استخدامنا للمصطلحات استخداما حياديا ، وعلى ذلك فإن مصطلحات من مثل « أزمة » و « برجوازية » وغيرها ستستخدم بغير تلوين نقدى أو تقييىمى ، فضلا عن التلوين الانفعالى الذى يظهر على الخصوص فى المصطلح الماركسى التقليدى ، بما يؤدى اليه من ازدياء أو تمجيد .

١٦ - نقصد بمصطلح « الحضارة الغربية » ما كان يسمى من قبل باسم الحضارة « الأوربية » ، وذلك نظرا للتوسع الجغرافى الذى تعدى قارة أوربا بالمعنى الدقيق . ونقصد « بالغرب » ، ليس المفهوم السياسى الذى كان سائدا منذ نهاية عاسمى باسم « الحرب العالمية الثانية » ، والذى كان يشير الى غرب أوربا وأمريكا على أنه « الغرب » والى شرق أوربا على أنه « الشرق » ، بل نقصد المفهوم الحضارى الجامع والذى يغطى المساحة الجغرافية الممتدة من جبال الأورال (وهى الحدود الطبيعية لروسيا) حتى الشواطىء الغربية لأمريكا على المحيط الهادى . وقد كان موقفنا دوما ، ومن ثبل التغييرات الجذرية التى شهدها الاتحاد السوفيتى وشرق أوربا منذ ١٩٨٩ م . فطالعا ، ان الحضارة الغربية تمتد من الأورال الى الأمريكتين والى استراليا ، رغم أن قلبها انما كان يقوم فى أوربا وخاصة فى غربها بعد جنوبها ، ولكن تغير مراكز القوى انما هو

دال بذاته على بعض جوانب أزمة تلك الحضارة ، على ما سنرى .

١٧ - ان دراستنا لطبيعة الحضارة الغربية تقوم على خلفية مقارنة مع عدد من الحضارات أتيح لنا دراستها والاقتراب من فهمها بحكم ألوان من التخصص : وهى الحضارة المصرية القديمة ، الحضارتين اليونانية والرومانية ، والحضارة الاسلامية . ورغم أن اتصالنا بغير هذه الحضارات جزئى وغير متعمق ، الا أن هذه الحضارات الأربع ، مضافا اليها حضارة أوروبا المسيحية التى اتصلنا بدراستها بعض الشيء ، هى التى تهتم وحدها حينما يكون المرء بصدد فهم طبيعة الحضارة الغربية .

١٨ - ومن أهم المواقف التى نفضل تنبيه القارئ الى اتخاذنا لها من الآن ، وأن كنا سنعود الى تبرير هذا الموقف من بعد ، اننا نرفض وهم « العصر الواحد » الذى يقع فى خطئه الأكثرون حين يظنون اننا نعيش مع الحضارة الغربية فى عصر واحد ، ويقولون « العصر الحديث » بغير تمييز ، بينما أقل المقبول هو أن يقال اننا نعيش فى «وقت» واحد ، وحتى هذا القول قد لا يكون دقيقا كل الدقة ، لأنه ليس هناك وقت مطلق : ألا تمر ساعة ، هى الساعة ذات السنتين دقيقة ، ولكنها ليست نفس الوقت لمسافر من قطر الى قطر وطالب يمتحن وعاشق ينتظر معشوقه وصياد ينتظر

فريسته وطبيب جراح ومريض يخضع لجراحة دقيقة ونائم
يتناب كسلا ؟

١٩ - اننا نحاور النظر الى الحضارة الغربية بغير
تمجيد وبغير استنكار معا ، كما أشرنا ، وينتج عن هذا ،
أو يتصل به اتصالا وثيقا ، أننا لا نستطيع ، ولا ينبغي ،
أن نقول أن حضارة الغرب « أحسن » من غيرها أو
« أسوأ » ، فهي ليست أحسن منا ، كما أننا لسنا أحسن
منها ، وكلا القولين الأولين سواء في خطئه . اننا نقول
بالمساواة بين شتى الحضارات، من أعظمها قوة الى أيسرها
قدرة حربية ، من أطولها عمرا الى أقصرها حياة ، ولأسبيل
عندنا الى أن نقول ان الحضارة الغربية ذات الحول
والطول « أحسن » أو « أفضل » من حضارة أصغر قبائل
الامازون أو استراليا . والأساس في هذا أن التقييم فعل
ذاتي ، وكل تقييم يعتمد على معيار مختار ، فمن سيضع
هذا المعيار ؟ بعبارة أخرى : من له الحق في أن يحكم على
الآخرين ابتداء من اختياراته هو ؟ بل قل : من ذا الذي
له الحق أن يكون حكما وطرفا في القضية في وقت واحد ؟
ذلك أن القول بأن حضارة « أحسن » من غيرها يعنى اختيار
أوضاع تلك الحضارة لتكون معيارا للحكم على غيرها ،
وهو أمر يظهر خطره اذا طبقناه على العلاقات بين الأفراد
ومحاولة تقييمهم ابتداء من واحد منهم على التعيين . ومن
جهة أخرى ، فان هذا لايعنى عدم وجود فروق بين

الحضارات من حيث القوة أو التأثير أو البقاء أو الغنى
أو غير ذلك من أصداد هذه الصفات .

٢٠ - وننهي هذه المقدمات بالإشارة الى أن من أول
أهدافنا محض إثارة المشكلة والدعوة الى التأمل حولها .
كما أن فعل الفحص الذى سنقوم به فى الصفحات التالية
قد لا يقل أهمية بذاته عن النتائج التى سوف نتوصل اليها ،
إذا ما توصل على الأقل الى اقناع القارئ الناقد أن وضع
الحضارة الغربية ليس تماما على ما يبدو عليه فى ظاهره
وفى وعى قادتها وأوهام الخاضعين لها ، على نحو أو
آخر ، فى ميدان واحد أو فى سائر الميادين .

ثانيا : أهمية الموضوع :

١ - ان تناولنا لموضوع أزمة الحضارة الغربية ليس
تناولا « معرفيا » ، أى بقصد احراز معرفة لأجل العلم بها
وحسب ، بل هو تناول « فلسفى » ، وبالتالي فإنه من أجل
الحياة وتوجيه الفكر . فما أهمية هذا الموضوع ؟ اننا
نعتقد أن تناوله والوصول بشأنه الى اتفاق وطنى وقومى
عام ضرورة لازمة فى وضعنا الحضارى ، بل هو مقدمة
ضرورية من مقدمات اقامة ثقافتنا الجديدة ، فضلا عن
كونه مقدمة أساسية نحو بناء فلسفتنا المصرية الجديدة
(التى ستكون بدورها تأسيسا لفكر الثقافة المشتركة
لبلاد لغة الضاد) . اننا نبدأ من منطلق أساسى : اننا نبنى

ثقافة جديدة وحضارة جديدة تماما ، تختلفان في نفس الوقت عن حضارة الغرب وثقافته وعن حضارتنا وثقافتنا السابقتين (وليس هنا مكان تأسيس هذا المنطلق وتبريره وتفصيل القول فيه) . ولكن الغرب هو الذى يتسيد على أحوال أقطار الكرة الأرضية اليوم ، ولذلك فإنه يعوق قيام ذاتيتنا الجديدة ، فضلا عن نجاحه الكبير فى اتخاذ مروجين لسيادته من بين صفوفنا ، وهذه الاعاقة ، التى قد تؤدى الى انسحاقنا تحت أقدامه بل والى فنائنا كذات حضارية ، تشكل أزمة عظمى نعيش فيها وان لم يدرك ذلك البعض منا ، أو لم يدركوه على هذا النحو على التحديد .

فى ظل هذه الأزمة العميقة الشاملة ، وجب أن تحدد طبيعة الخصم ومصدر الخطر ، لنعرفه على حقيقته ، لننتبه الى الأخطار ولننبه الى الأوهام التى ينشرها هو ، ويروجها له أعوان مجندون أو متطوعون وهم لا يدرون . ان مستقبلنا فى خطر ، بل ومستقبل البشرية نفسها .

٢ - ان من نتائج هذه الدراسة ادراكا جديدا للحقل الحضارى الذى نتحرك فى اطاره ، وسوف نرى أنه يترتب على قبوله ، أو رفضه لمن شاء ، نتائج ذات أهمية عظيمة ، لأن قبول القول بأن الحضارة الغربية فى أزمة ، وأن هذه الأزمة ستؤدى بها الى التفسخ والانهايار ، يؤدى الى وجوب اتخاذ اختيارات حضارية جوهرية والى اتخاذ مواقف فلسفية جذرية .

٣ - أن الذى يجعل من وضع هذا الموضوع فى بؤرة التأمل من كل نوع أمرا ضروريا هو الخطر الشامل الجاسم للسيطرة الغربية على شتى أمورنا . ان هذا الخطر أصبح حاضرا وماثلا منذ عام ١٧٩٨م، وما أندر الفترات التى خفت فيها تلك السيطرة، ولا نقول اختفت، ولكن الشاهد أنها تميل الى التآكد والرسوخ والاتساع، والى اكتساب عدد هائل من العملاء الواعين وأولئك المتطوعين وأولئك المتوهمين والسذج ، فى السنوات العشرين الأخيرة بخاصة ، وشاهد على ذلك الحضور الغربى العسكرى الذى لم يسبق له مثيل قريبا منا فى الخليج بمناسبة غزو حكام العراق للكويت. ناهيك عن السيطرة الاقتصادية على مصر وغيرها والسيطرة الاعلامية والفنية والثقافية بعامة ، تحت أسماء ودعاوى لاينبغى أن تخفى حقيقة ما وراءها . ان الوطنية والقومية تقول برفض السيطرة الغربية ، وسيساعد موقفها (أى الوطنية والقومية) أن نفلتن الى حقيقة موقف الغرب فى هذا العصر ، وسيكون هذا مؤديا ليس فقط الى القاء هذه السيطرة الأجنبية البغيضة عن أكتافنا والقضاء عليها، بل وكذلك الى اثبات سيادتنا الحقيقية .

٤ - وسبب حيوى آخر للاهتمام بموضوعنا هذا : أن أزمة الغرب ، المؤدية الى مايمكن أن نسميه « بأمراض الشيخوخة الحضارية » (باستخدام محايد لكلمة «مرض»)، يمكن أن يصيبنا بسببها نصيب من تلك الأمراض ، لو لم ننتبه جيد الانتباه الى طبيعتها من حيث هى كذلك (ومن

أظهرها للعيان وأقربها منالا ظاهرة الجشع الاستهلاكي وسيادة روح العنف وسيادة الروح العدوانية بازاء كل شيء) . بعبارة أخرى : ما يصيب الغرب يهمننا لأنه تهديد لنا نحن أنفسنا . وقد يقول البعض (ممن رضع لبان الثقافة الغربية على ما ظن ورفض التفكير على غير طريقتها المعتادة) ان العصر واحد وهذه ظروف العصر وعلينا مجابتهها كما يجابها القائد الحضارى الذى هو الغرب . ونحن نرفض مفهوم العصر الواحد ، وفي المقابل ندرك بوضوح شديد أن شتى الحضارات وسائر الأمم اليوم « تقف جميعا على مركب واحد » كما يقال ، أى أن ما يصيب غيرى قد يصل الى والتأثيرات متبادلة ، ولكن الذى نؤكد عليه هو أن كوننا جميعا على مركب واحد لا يعنى على الأخص أن الحضارة الغربية ليست فى أزمة عميقة ، ويهمنى كثيرا أن أدرك شتى أبعادها لأبعد أخطارها عنى، أنا الحضارة الجديدة الناشئة ، والتي ربما ستكون الممهدة للعالمية الجديدة الحقة وحدها . فهى خسارة لأهل الغرب أنفسهم إلا ندرك حضارتهم فى هذا العصر على حقيقاً وضعها .

٥ - ونشير هنا سريعا الى أن ما يظن أنه قد تحقق اليوم من « عالمية » شاملة انما هو عالمية زائفة ، لأنها تدعى وحدة الكرة الأرضية لأول مرة ، بينما الحقيقى انها لاتعنى الا امتداد اليد العسكرية والسياسية والسيطرة الاقتصادية

والثقافية للحضارة الغربية لتصل الى كل أجزاء المعمورة ،
أو قل ان العالمية الزائفة لاتعنى الا كون شتى بلدان الأرض
قد أصبحت سوقا تباع فيه منتجات الغرب ، ولا يسمح
لأهلها بأن ينتجوا وانما أن يستهلكوا وحسب (وانظر الى
خيانة تحطيم البنية التحتية للصناعة ، بل وللزراعة ،
المصرية فى العهود الأخيرة ، حتى أصبح الفلاح المصرى
يستورد الجبن والبيض فضلا عن القمح) . أما ما نتحدث
عنه كامكان فى المستقبل غير المنظور فهو العالمية الحقيقية
التي تشارك فى صنعها كل أمم الأرض وشتى حضاراته ،
وبعد بناء حضارتنا الجديدة ، حتى تكون لنا يد طولى
تناسب مكاننا فى صنع العالمية الجديدة الحققة ، وعلى
أساس من العدالة والمساواة مع شتى الأمم ، وبعد ادراك
الغرب أنه حضارة بسبيل التحلل ، وأن اصراره على زعم
قيادة شتى الشعوب كفيل بوضع الجميع على شفا الجحيم .

ومن الواضح أننا نميز تميزا حاسما ما بين «حضارة
الغرب» كتنظيم وبين أهل بلدان الغرب ، فهم بشر مثلنا ،
منا ومنهم الصالح والطالح ، ولنا معهم كأفراد علاقات
شتى ، ولا نريد لهم الا الخير كما نريد لأنفسنا .

٦ - ولانشك أن معالجة أزمة الغرب على نحو تأصيلى
قمينة بأن تضعنا على الطريق الصحيح لادراك الاختلاف
النوعى العميق ما بين أزمته وأزمتنا . وبأيجاز شديد

نقول : ان أزمة الغرب أزمة شيخوخة وتحلل وأزمنا أزمة
نشوء وبناء .

٧ - أشرنا فى النبذة الرابعة السابقة الى أننا جميعا ،
نحن والغرب ، « على مركب واحد » (بسبب ثورات
الاتصالات والمواصلات والمعلومات وغيرها) ، والى أننا
نرفض فى نفس الوقت فكرة « العصر الواحد » . ويمكن
أن نعيد صياغة هذا الموقف على نحو موجد : ان أزمة
الغرب تهمنا كثيرا (لأننا « على مركب واحد ») ، ولكنها
لا تخصنا لأنها ليست أزمة ثقافتنا الوليدة (ومتعثرة
الخطى فى الواقع بسبب الغرب نفسه الذى يقف لخطرها
بالمرصاد) ، ولا هى أزمة أمتنا ، ولانحن مسئولون عنها
على أى نحو (لأن العصر ليس واحدا ، بل للغرب عصره
ولنا عصرنا ، وان كان الاثنان متزامنين وحسب » .

٨ - ومرة أخرى نؤكد على أن الهدف فى هذه الدراسة
ليس التنديد ، بل هو الفهم ثم تعبيد الطريق للإشارة الى
مخرج لنا من أخطار الغرب .

ثالثا : تحديدات وتعريفات أساسية :

١ - استخدمنا فيما سبق ، وسنعمل فيما يلى ، وبكثرة ،
مصطلحي « الحضارة » و « الثقافة » . ونقترح التعريف

التالى لمصطلح « الحضارة » : « هى كل متجانس من الظواهر الاجتماعية (أى تلك الظواهر التى تنتج عن اجتماع الانسان) يلتف حول عدد من القيم الأساسية ويتميز بالوعى بالانتماء الى بؤرة مشتركة ، وقد يضم أمة واحدة أو عددا من الأمم » . وينتج عن هذا التعريف رفض زعم كون أية حضارة أنها الحضارة « المطلقة » (وهو ما تزعمه الحضارة الغربية لنفسها) . فلا يوجد مطلق بين الحضارات ، ولا توجد حضارة مطلقة . ونلاحظ أن كل حضارة ، منظورا اليها من نظر أعضائها تزعم لنفسها انها خالدة ، ولكن حكم قانون الحياة والموت ، كما نرى من شواهد التاريخ ، ينزل كالسيف ، ولا يرحم حتى تلك الحضارات التى تدعى أنها ذات ميلاد الهى .

٢ - كثيرا ما يتداخل استخدام مصطلحى « الثقافة » و « الحضارة » ، وهناك خلاف مستمر على خط التمايز بينهما ، ويحدث أن يستخدم احدهما مكان الآخر . ولكن « الحضارة » أعم من « الثقافة » ونقترح التعريف التالى للثقافة : « هى مجموعة التصورات والقيم التى تحدد التوجهات الفكرية والشعورية لمجتمع ما » ، وقد يشمل أيضا : « وانتاج ذلك المجتمع فكرا (بأعم المعانى للفكر بما يشمل الدين والأخلاق » وفنا الجسد لتلك التصورات والقيم » .

٣ - من المهم أن نفصل بعض الشئ فى المضمون

الذى يبدو لنا من وراء كلمة « الغرب » . ان كل حضارة كائن معقد التركيب ممتد العلاقات فى المكان وخاصة فى الزمان . والحضارة الغربية كانت تسمى الى وقت قريب بالحضارة الأوروبية ، سواء عند أهلها أو عند أهل الحضارات الأخرى ، وعلّة ذلك أنها فى المحل الأول نتيجة نشاط شعوب هذه القارة ، ولكن امتداد الهجرة الأوروبية خارج أوروبا وتوطنها فيما سسمى باسم الأمريكيتين واستراليا وغيرها من الأماكن ، وعلى الأخص قيام المجتمع الذى استقر فيما عرف باسم الولايات المتحدة الأمريكية ، وتوليه دورا قيادياً علا بالتدريج منذ ١٩١٤ ميلادية وخاصة منذ ١٩٤١ (سنة اشتراك تلك الدولة فيما سمته الحضارة الغربية « بالحرب العالمية الثانية ») ، كل هذا أدى الى الشعور بقصور اسم « الحضارة الأوروبية » والى أن يستخدم مكانه اسم « الحضارة الغربية » ، التى تصبح منطقة امتدادها الرئيسية اذن هى أوروبا من جبال الأورال حتى المحيط وأمريكا الشمالية الى جانب المناطق الأخرى التى تاتى فى المرتبة الثانية أو الثالثة . ومهما يكن من أمر ، فان « توابع » الحضارة الغربية خارج أوروبا انما تنتمى بشريا وثقافيا الى أوروبا وتنطبق عليها مؤثرات المكان التى ساهمت فى تحديد مصائر تلك القارة . وربما كانت المنطقة الحاسمة فى نشأة حضارة أوروبا هى جنوبها المطل على البحر المتوسط ، ليس فقط لأن البحر المتوسط شهد ميلاد اليونان وروما ، بل وكذلك لأنه هو

الذى يربط أوروبا بآسيا ، تلك القوة الهائلة التى خرج منها ركن جوهرى جدا من أركان الثقافة الأوروبية الا وهو الديانة المسيحية . وهكذا فإن منطلق الامتداد المكانى والثقافى لأوروبا هو أولا حوض البحر المتوسط ، ومع ذلك فإن الحضارة الغربية أخذت حديثا فى الارتكان الى امتداد مكانى نحو الشرق (شمال آسيا) والغرب (الأمريكتان) ، ولهذا البعد المكانى الجديد أهميته الاقتصادية والسياسية الواضحة .

كان هذا عن البعد المكانى للحضارة الغربية الحديثة . أما عن البعد الزمانى ، وهو أهم فى نهاية الأمر ، فإنه يعود ، اذا قصرنا حديثنا على العصور التاريخية وتركنا فترة بربرية الشعوب التى سميت فيما بعد بالأوربية ، يعود هذا البعد الزمانى الى اليونان أولا ثم الى روما . وعن اليونان أخذت الحضارة الغربية أهم أسس تكوينها العقلى والفنى : أخذت الفلسفة والعلم والأدب والفن وأخذت أيضا أيضا تراث اليونان السياسى وخاصة فكرة الديمقراطية (أى حرفيا باليونانية « حكم الشعب ») ، كما أخذت من روما عناصر سياسية أخرى أهمها فكرة التنظيم الامبراطورى وعلى الأخص القانون الرومانى الذى لاتزال تأثيراته واسعة فى التشريعات الغربية عامة وفى وسط وجنوب أوروبا خاصة . على أنه ينبغى لنا أن نضيف بعدا أبعد من اليونان : ذلك هو مصر . فالحضارة المصرية كانت أكثر

حضارات البحر المتوسط تأثيرا منذ قيامها التاريخى فى
الآلف الرابعة السابقة على الميلاد (على الأقل) حتى قيام
الحضارة اليونانية فى المائة التاسعة ق م . وهى قد أثرت
أبعد تأثير على اليونان وخاصة فنا وعلما ، وهى بهذا ،
من خلال اليونان ، أحد العناصر المقومة للتراث الأوروبى .
بعد اليونان وروما ، تأتى الديانة المسيحية التى نشأت فى
فلسطين ، ولكن تحت تأثير حضارات الشرق الأوسط بصفة
عامة وخاصة حضارات سوريا ومصر ، وغزت قلوب
اليونان وروما ثم برابرة أوروبا الوسطى الذين كانت هى
السبب الأساسى فى جعلهم « يتحضرون » شيئا فشيئا ،
الى جانب التدخل السياسى والعسكرى الرومانى . وقد
أصبحت المسيحية هى عماد كيان الشعوب الأوربية بعد
انهيار الامبراطورية الرومانية الغربية تحت اقدام الغزاة
البرابرة الجرمان النازلين من الشمال (٤٧٦ ميلادية)
وحتى القرن الثالث عشر الميلادى ، حين تبدأ سلطة الكنيسة
فى الانهيار وتبرز بدايات ما سيمسى عصر « النهضة »
الأوربية والتى سيكون من أهم معالمها العودة الى دراسة
اليونان والرومان باعتبارهم أساتذة العقل الأوروبى ،
ولاتزال « النزعة الانسانية » فى الحضارة الغربية حتى
اليوم تعنى العودة الى قيم الحضارة اليونانية بوجه خاص .
وهكذا ، فان الامتداد الزمانى للحضارة الغربية يعود
الى هذه العناصر : الحضارة المصرية، اليونان، الرومان ،

والمسيحية (وعن طريقها حضارات الشرق الأدنى بصفة عامة) .

وهناك عوامل صلبة تجعل من الممكن التحدث عن « حضارة غربية » بصفة عامة تمتد من جبال الأورال حتى المحيط الهادى شرقا ، وأهم هذه العوامل العامل الجنسى والعامل اللغوى والعامل التاريخى ، الى جانب العاملين الثقافى والدينى الذين أشرنا اليهما . فكل هذه الشعوب تنتمى الى ما يسمى « بالجنس القوقازى » (مع بعض استثناءات نادرة) ، كذلك فانها تنتمى (مع استثناءات نادرة أيضا) الى نفس المجموعة اللغوية التى تسمى مجموعة اللغات « الهندية - الأوربية » . وربما كان عنصر اللغة هذا هو العنصر الحاسم فى ربط أقسام الحضارة الغربية رغم الاختلافات السياسية الشديدة : فكل اللغات الموجودة هناك اليوم (أو على التقريب) تشترك معا فى خصائص مشتركة ، وكلها على الأخص متأثر فى الصميم باليونانية واللاتينية ، بما فى ذلك مجموعة اللغات الجرمانية ومنها الانجليزية والالمانية . ولهذا فانه ليس من النادر أن تجد مفكرى الغرب اليوم يستشهدون بنصوص من شيشرون الرومانى أو أفلاطون اليونانى وكثيرا ما يتم ذلك باللاتينية نفسها أو باليونانية . أخيرا فان كل التكوينات السياسية الأوربية التى ظهرت فى تاريخ أوربا الحديث انما نتجت عن الوضع السياسى لأوربا فى القرون

الوسطى ، وهذا الوضع هو الوريث المباشر للامبراطورية الرومانية بل وامتداد له ، بحيث ان بعض الخلافات السياسية (مثلا فى وسط أوروبا وشرقها) انما هى وثيقة الاتصال بأوضاع أوروبا خلال عصر تاريخها الوسيط وخلال خضوعها للامبراطورية الرومانية .

٤ - أهم خصائص الحضارة الغربية :

اليوم هو ابن الأمس كما أشرنا ، والمدقق فى مظاهر الحضارة الغربية اليوم ، وفى مظهرها الفكرى بشكل خاص ، يجد أن كل تلك المظاهر مرتبطة ارتباطا حيويا ببدايات الحضارة الغربية منذ عصر مايسمى « بالنهضة الأوربية » : فلا يزال هناك اليوم من يعود الى مكياڤلى فى ميدان السياسة والى مارتن لوتر فى ميدان الدين والى ديكارت فى ميدان الفلسفة والى مايكل انجلو وليوناردو دافنشى فى ميدان الفن التشكيلى والى شكسبير فى ميدان الأدب وغير ذلك . فمن الضرورى انن أن نحدد الاتجاهات العامة الأصلية للحضارة الغربية ككل حتى نستطيع أن نحسن فهم اتجاهاتها اليوم .

ولعل أسهل الوسائل وأوثقها معا هو الاشارة الى اختلاف تلك الحضارة عن الحضارة التى سادت أوروبا قبل ذلك ، والتى سماها الغرب باسم حضارة القرون الوسطى المسيحية ، والتى تمتد من القرن الخامس الميلادى على

التقريب حتى القرن الخامس عشر . وقد كان من العوامل التي هيات بدايات تقوض أركان الحضارة الأوربية الوسيطة منذ القرن الثالث عشر ما هو دينى وما هو اقتصادى وما هو سياسى . فقد أخذت السلطة البابوية فى الضعف ، وتتوج هذا الاتجاه بانفصال البروتستانت مع مارتن لوتر عن كنيسة روما ، كما بدأت طبقة من التجار تزداد ثراء وقوة وخاصة فى ايطاليا ، وذلك على حساب الكنيسة من جهة والنبلاء الاقطاعيين من جهة أخرى . أخيرا أخذ الملوك ، فى غرب أوربا على الأخص ، يتطلعون نحو استقلال حقيقى عن الامبراطور الجرمانى وعن السلطة انبأوية ، وهو ما يسمى باتجاهات القومية ، التي كان أظهرها القومية الفرنسية والانجليزية . وقد أدى كل هذا معا الى تغير مطرد فى العقلية الأوربية التي أخذت تهجر الاهتمامات الدينية شيئا فشيئا ، حتى أصبح سادة المجتمع ليسوا هم رجال الدين بل أصحاب المال والتجارة ، وأخذ العلماء يتجهون ببحوثهم نحو الطبيعة ذاتها مبتعدين عن سلطة الكنيسة (التي كانت تقوم من الناحية الفكرية على التوراة والانجيل من جانب وأرسطو من جانب آخر) ، وجرؤوا فى نهاية الأمر على سبيل المثال على اعلان أن الأرض هى التي تدور حول الشمس وليس العكس ، كما كانت الكنيسة تؤكد مستندة الى نصوصها المقدسة ، وأصبح اهتمام رجال الأدب والفن متجها نحو اليونان والرومان يبحثون مؤلفاتهم ويقلدونهم

في اتجاهاتهم ، وخاصة في اهتمامهم المركزي بالانسان وليس بالالوهية ، وبهذا العالم الدنيوي وليس بعالم آخر ديني ، كانت الكنيسة ترهب به الخواطر وتسيطر عن طريقه على النفوس . ومما ساعد على هذا ، اى على تحرر العقول والقلوب من سلطة الكنيسة ، عاملان : الأول هو اختراع الطباعة في ١٤٤٠ م . ، وهي قد ساعدت على سرعة انتشار الأفكار وزيادة سرعة تقويض سلطة الكنيسة ، والثانى هو الكشوف الجغرافية التي أدت الى نتيجتين : ثراء جديد للتجار ، وبالتالي ظهور طبقة اجتماعية قوية مؤثرة (بدايات البورجوازية) ، ثم شعور المفكرين بأن العالم أكبر مما كان يتصور ، مما ساعد على تقويض فكرة العالم المحدود الذي كانت تقول به وتسفيد منه الكنيسة .

وقد تحددت منذ عصر النهضة الأوروبية (من ١٤٥٣ حتى حوالي ١٦٠٠ ميلادية) أهم معالم الحضارة الغربية التي أخذت في التأكد مع مرور الوقت حتى اليوم ، ويمكن حصر أهم تلك المعالم فيما يلي :

- ١ - الاهتمام بحياة الانسان في هذا العالم .
- ٢ - الاعتقاد الديني لاينبغي أن يخضع الا لضمير المعتقد .
- ٣ - الاهتمام بسلطة العقل ضد سلطة الكنيسة .

٤ - العلم الطبيعي ميدان مستقل عن الاعتقاد الدينى .

٥ - التأكيد على أهمية الاستفادة من العلم : فالعمل هو الذى يوجه النظر ، ومن هنا كان الاهتمام بالتكنولوجيا الى جانب البحث العلمى الخالص .

٦ - المجتمع مكون من أفراد لكل منهم استقلاله ، ومن هنا الاتجاه نحو الفردية الشديدة .

٧ - الطبيعة لا نهائية وليست ، كما كانت الكنيسة تقول ، كالكرة المحدودة ترأسها الألوهية .

وبطبيعة الحال فقد ظهرت تيارات فى الحضارة الغربية تمارس ضد بعض هذه الاتجاهات والى درجة شديدة من العنف (مثلا التأكيد على الجماعة ضد الفرد فى الثورة السوفيتية) ، ولكن هذا نفسه يؤكد على الاتجاه المسيطر وهو الاتجاه الذى تقوم ضده الثورة ، ولولاه لما قامت . ولعل أهم مراكز الاهتمام فى الحضارة الغربية يتلخص فى الكلمات التالية التى ينفى كل منها ضدا له : الانسان - الفرد - العلم الطبيعى - العمل - العقل - اللانهائية ، وتقابلها كلمات : الألوهية - المجتمع - الدين - المعرفة لأجل المعرفة - العقيدة - مفهوم الكون المحدود النهائى .

نعم ، هناك عالم واحد بالمعنى الجغرافى والطبيعى ، ولكن ليس هناك عالم واحد بالمعنى الثقافى أو الحضارى ،

بل عالمين متعددة • ويمكن تجميع «العوالم» أو «العالمين» الثقافية فى المجموعات الأربع الكبرى التالية :

(١) اطار الحضارة الغربية (ومركزها أوروبا الغربية، ولها جناحان هما أوروبا الشرقية وأمريكا الشمالية ، وتوابع منها أمريكا الجنوبية وأستراليا وغيرها) •

(ب) اطار المجتمعات التى كانت مشتركة فيما مضى فى نطاق « دار الاسلام » (وتضم قسمين كبيرين : المجتمعات الناطقة بالعربية وتلك غير الناطقة بالعربية : وهذا القسم الأخير غير متجانس ، على عكس القسم الأول) •

(ج) اطار مجتمعات جنوب آسيا وشرقها (وتضم ثلاثة أقسام) :

١ - جنوب آسيا ومركزه الهند •

٢ - شرق آسيا ومركزه الصين وجناحاهما اليابان وكوريا •

٣ - جزر وبلاد جنوب شرق آسيا ، وهى تتأرجح بين نفوذى القسمين السابقين •

(د) اطار المجتمعات الأفريقية •

وفى هذه المجموعات الأربع تقف الحضارة الغربية وحدها من حيث هى الحضارة المسيطرة والمكتملة النمو ، بينما تقف المجموعات الثلاث الأخرى معا من حيث انها جميعا فى موقف الدفاع ضد الحضارة الغربية بطرق شتى، منها تقليد الغرب ذاته .

وليس ادل على الاختلاف بين الحضارات من اختلاف قيمها الأخلاقية والجمالية ، وتنوع تصوراتها لطبيعة موقف الانسان من العالم بصفة عامة : هل هو موقف هجوم عليه أم موقف محاولة التوافق معه ؟ هل يكون موقفنا من الطبيعة أن « نغيرها » و « نستغلها » ، أم أن نحترمها كما هى ؟ وما الأساس فى اعتبار قيم الأشياء : هل هو الكم أم الكيف ؟ وما هدف الانسان من تعاونه مع الآخرين ؟ استغلالهم واستجلاب « الريح » منهم أم مؤاخذتهم ؟ الى غير ذلك من المسائل الهامة ، التى نضيف اليها أخيرا . وليس آخرا ، هذه المسألة : ما الانسان ؟ هل هو شيئان ، « روح » ، كما يقولون ، و « جسد » ؟ وفى هذه الحالة . هل هما متساويان من حيث الأهمية ، أم لأحدهما الأسبقية على الآخر ؟ أم أن الانسان انما هو كائن متكامل موحد واحد ؟ واذا استعرضت سائر الحضارات القائمة والسابقة ، لموجدتها تختلف اختلافا بينا فيما بينها حول هذه المسائل ، وكل حضارة ستشكل فى هذه الحالة «عالمًا

خاصا بها له قواعده التي تختلف تماما عن قواعد العوالم الأخرى التي هي تلك الحضارات المختلفة .

٦ - تعريف مفهوم « الأزمة » : نعنى باصطلاح « الأزمة » ما يلى : « الأزمة هي مشكلة وصلت الى حد الاستعصاء » . فالراقف التي يتعرض لها الانسان ، والمجتمعات كذلك ، يمكن تسميتها بالمشكلات من حيث انه يكون هناك فى كل موقف هدف يراد بلوغه وعوائق تقف دونه ، وسلوك الانسان هو محاولة لبلوغ الهدف بالتغلب على العوائق . وبهذا المعنى ، فان حياة الانسان بأسرها سلسلة متصلة متداخلة من فقدان الاتزان ثم استرجاعه ، وهكذا دوما . أما حين يصل المرء . أو المجتمع أو الحضارة ، الى موقف تزداد فيه العوائق بحيث يصبح تحقيق الهدف أمرا غير ممكن أو شديد الصعوبة الى درجة لاحتتمل ، عند ذلك نكون قد وصلنا الى مرحلة الأزمة . وهكذا فان الأزمة مرحلة فى تطور ، وهي مرحلة تمتاز باهتزاز الاتزان السابق اهتزازا شديدا ، وتستمر طالما لم يكن فى الاستطاعة الوصول الى اتزان جديد . ولهذا ، فانها ، من جانب ما ، « انقطاع » ، وهي فترة صعبة تفقد فيها السيطرة الكاملة على الموقف ، وتتميز بالمظاهر الحادة ، فهي ليست فترة شدة وضيق وحسب ، بل هي كذلك فترة توتر وصراع ، فيها اضطراب وقلق ، ومشقة وصعوبة ، وعسر وانزعاج ، هي ارتجاج واهتزاز ،

وزلزلة أحيانا وزعزعة ، وهزة قوية وزحزحة ، وقلقلة
وحركة شديدة ورجة .

رابعاً : علامات أزمة الحضارة الغربية (التوصيف) :

(١) ثلاث مقدمات :

١ - نقدم لعلامات أزمة الحضارة الغربية بثلاث
مقدمات . المقدمة الأولى أن أصواتا بارزة أمينة مسئولة
من بين الغربيين أنفسهم ، قد تكاثرت ، ومنذ الحدث الجلل
الذي كان أول الهزات الكبرى للحضارة الغربية ، إلا وهو
حربهم الشاملة الكبرى الأولى ، والتي سموها أولاً
« بالحرب الكبرى » أو « الحرب الأوروبية الكبرى » ، ثم
أطلقوا عليها من بعد ذلك « الحرب العالمية الأولى » (في
مقابل ما سموه أيضاً « بالحرب العالمية الثانية » ، وهي
في الواقع حرب غربية في قضائها وقضيضها) ، والتي امتدت
أربعة أعوام من ١٩١٤ م إلى ١٩١٨ م . ومنذ ذلك الوقت
وأصوات الغربيين المعلنة ببداية تفسخ الغرب وحضارته
وتحللها تمهيدا لانقضاء دورتها ، تتزايد ، وهي تمتد من
الكتاب الأخلاقيين إلى الأدباء إلى نبلاء السياسة إلى
المؤرخين الأمناء إلى بعض الفلاسفة ورجال الدين وغيرهم ،
أو قل في أقل القليل أن هناك أصواتا بارزة تشير إلى
وجود أزمة عظيمة ، ولنسمها « بالشرخ العظيم » ، في
جسد الحضارة الغربية منذ ١٩١٤ م . على الأخص .

٢ - المقدمة الثانية أن معالجة مظاهر أزمة الغرب في عصره المسمى بالقرن العشرين الميلادي (وهو توزيع زمني يخصه ولا شأن لنا به في حقيقة الأمر) ينبغي أن تتخذ لنفسها خلفية مقارنة أو اطارا مرجعيا ما كان عليه وضع الحضارة الأوربية في عصرهم المسمى بالقرن التاسع عشر الميلادي ، وهو عصر الاستقرار (النسبي) والازدهار العظيم للغرب . واذا كانت الحضارة الغربية (الاوربية) قد قامت على أنقاض مايسمى بالحضارة المسيحية في أوربا ، والتي وصلت الى قممتها في عصرهم المسمى بالقرن الثالث عشر الميلادي ، ثم دخلت على الفور الى مرحلة الأزمة والتحلل وأخذت في الانهيار السريع ، اذا كانت الحضارة الأوربية قد قامت على أنقاض سليفتها المسيحية ، وبزغت بداياتها منذ عصرهم المسمى بالقرن الرابع عشر الميلادي وظهرت بعض أسسها فيما سموه «بعصر نهضتهم» (الأوربية) والذي يمتد على التقريب ، كما رأينا ، من منتصف القرن الميلادي الغربي الخامس عشر الى نهاية القرن السادس عشر ، فان القرن السابع عشر الميلادي هو عصر التكوين المنظم والتأسيس الحقيقي بعد ارهاصات عصر « النهضة » ، الذي يعد في الحقيقة عصر النشأة وبدايات التكوين . وفي هذا العصر الجديد ، القرن السابع عشر الميلادي ، يستقر التشكيل الجديد للقوى الجديدة التي ستنتسب اليها الحضارة الجديدة الغربية ، وأهم هذه

القوى على الاطلاق قوة « البورجوازية » أو الطبقة الوسطى التجارية أولا ثم المالية والصناعية من بعد ذلك . أما عصرهم المسمى بالقرن الثامن عشر الميلادي فانه عصر التمكّن وفترة الانطلاق فى البناء التفصيلي ، وليس عجبا أن يشهد فى قرب نهاياته انطلاق مايسمى « بالثورة الصناعية » فى انجلترا من جهة والثورة الفرنسية الكبرى (١٧٨٩م) من جهة أخرى . (ومن المعروف أن ذلك العصر شهد نضوج النظم الفكرية الأوروبية قلبا وقالبا ، واستقرار العلوم الطبيعية على يد « اسحق نيوتن » الانجليزى ووفرة الانتاج الأدبى على طريقة الحضارة الجديدة بل وبدايات التطلع الاستعماري نظرا وعملا ، وغير ذلك) . فاذا أتينا الى العصر المسمى بالقرن التاسع عشر الميلادي عندهم ، فاننا نجده عصر الاستقرار النسبى والازدهار وقمة البلوغ ومجلى النضوج التام . ونرى من جانبنا أن ذلك القرن التاسع عشر الميلادي قد شهد ، ومنذ بداياته ، قمة الحضارة الغربية ، ونحن نضعها فى مجالى أربعة أو خمسة كبرى : استقرار « النظام » السياسى الأوروبى بعد هزيمة نابليون عام ١٨١٤ م ، والثورة الصناعية ، وتفاعلات الثورة الفرنسية أفكارا وقيما وتنظيمات ، والفلسفة الهيجالية فكرا ، وجوته وبيتهوفن فنا . ولكن اذا كانت نقطة القمة هى أعلى نقاط تطور ما (أو حتى مكان ما) ، فانها ذاتها وحكم التعريف الموضع الذي

يبدأ معه اتجاه النزول ، ويتضح هذا على نحو حاسم في منحنى الخطوط البيانية على ماتستخدم في بعض العلوم من مثل علم الاقتصاد وعلم الاجتماع وعلم النفس وغيرها ، ففي منحنى الخط البياني تتجاوز تماما نقطة القمة ونقطة بداية النزول . فليس عجبا ان نجد النظام الأوربي الجديد ، الناتج عن مؤتمر فيينا ١٨١٥ م ، يؤكد حقوق الملوك ، بينما توجه الحضارة الغربية الجرهرى هو توجه بورجوازى ، وان نجد الثورة الصناعية يصاحبها على نحو صارخ واد الكرامة الانسانية للعمال (كما نجد فى روايات تشارلز ديكنز خاصة) ، بينما تدعى حضارة الغرب أنها تقدر الفردية وتحترم الانسان فى مقابل الألوهية ، وأن نجد أن الثورة الفرنسية الكبرى ، ذات الشعار البرجوازى « حرية واخاء ومساواة » ، تكد ولادة طبيعىة نظام الحكم الدكتاتورى النابليونى ، وأن نجد الفلسفة الهيجلية يظهر ضدها على الفور صرخة اللاعقلية عند نبى « الوجودية» الدانمركى كيركجور ، وأن يقابل هذا بحالة شبيهة فى الفنون : فبعد « كلاسيكية » جوته وديتهوفن تسود النزعة الرومانتيكية فى معظم الفنون ، وهى الأخرى نزعة لاعقلية ، بينما الدقل من مقدمات الحضارة الغربية ومن أهم رموزها . وليس أدل على وصول الحضارة الغربية فى القرن التاسع عشر الميلادى الى منتهى ازدهارها من أنه عصر التمتع العظيم بنتائج سيطرتها الاستعمارية على كل مناطق

العالم المأهولة على التقريب ، وأنه ، من قبل هذا ، العصر
الذي شهد أقصى توسع استعماري لشتى دولها القارة .

٣ - السمة العامة للأزمة ، وسواء كانت تلك الأزمة
على مستوى الحضارة أو على مستوى المرض الانساني،
أو غير هذا وذاك ، هي حدة التوتر والتطرف .

(ب) علامات عامة بارزة للأزمة :

١ - نتحدث عن علامات أزمة الحضارة الغربية في
قسمين : الأول يختص بالعلامات العامة ، والثاني بعلامات
الأزمة في بعض الميادين الهامة . ونبدأ هنا بالقسم الأول .

٢ - لعل من أهم العلامات العامة تحطم القوى الأوروبية
التقليدية صبيحة نهاية ما سماه الغرب « بالحرب العالمية
الثانية » . فقد ترشحت للقيادة السياسية والعسكرية
والاقتصادية للحضارة الغربية قوى متعددة منذ عصر
نهضتهم ، ومنها هولندا والبرتغال واسبانيا ، ولكن حركة
الأحوال انتهت الى تركيز تلك القيادة في يدي انجلترا
وفرنسا ، وهذا هو مايشهد به ، خلال القرن التاسع عشر
الميلادي ، واقع السيطرة الاستعمارية العالمية من جهة ،
ولعبة التوازنات الأوروبية من جهة أخرى . بعبارة أخرى :
انتهى «النظام الأوربي» الى السيادة الانجليزية والفرنسية .
حتى جاءت الحرب « العالمية » الثانية ، وانهار هذا

النظام الى غير رجعة ، وتراجعت انجلترا وفرنسا الى دولتين من الدرجة الثانية . ان نظام الغرب لم يعد هو ما هو ، بل لقد تحطم التنظيم الغربى التقليدى ، وحل محله تنظيم جديد بعد ذلك الذى كان قد استقر لأجيال متعددة بل لمئات من السنين ان تكلمنا على وجه عام وأخذنا الميدان فى مجمله وعموميته . لقد فقد الغرب اتزانه التقليدى ، ولم تعد الدنيا هي الدنيا .

٣ - وليس أدل على تضعف قوة الغرب من أنه اذا كانت قوتنا « المركز » ، فرنسا وانجلترا ، قد نزلتا عن عرشهما ، فان من ورثهما انما هما قوتان من قوى الأطراف البعيدة : الولايات المتحدة الأمريكية غربا والاتحاد السوفيتى (أى روسيا فى النهاية) شرقا ، وقوى الأطراف ليس لها ، بحكم واقع الحال ، نفس التجربة التاريخية التى لقوى المركز ، بل تكونان فى العادة « دخيلتين » و « مبدئيتين » فى مجال القيادة ، فلا غرو الا نتوقع القوة والحنكة والفاعلية التى شهد بها للقوتين المركزيتين التقليديتين . بعبارة أخرى : أصبحت قيادة الغرب فى أيدي « مبدئيين » ، وهذا هو ما صاحبت به أصوات أوربية عديدة فى وجه ما سموه « بالأمريكى القبيح » غداة حربهم العالمية الثانية . وتشير سائر التطورات الى أن سيطرة القوتين الجديديتين على ميراث الهيمنة الأوربية التقليدى أبعد ما تكون عن الاحكام ، ولا نشير الا الى مثال فشل

أمريكا فى فيتنام وتحلل الامبراطورية الروسية المسماة
بالاتحاد السوفيتى الذى يحدث تحت أعيننا هذه الأيام .
ان الغرب لم يعد السيد المطلق على نحو ما كان عليه فى
القرن التاسع عشر الميلادى .

٤ - واذا تركنا القوى السياسية الدولية الى القوى
الاجتماعية الداخلية ، وجدنا أن الطبقة البورجوازية ، التى
استفادت وحدها من ثمار حضارتها الأوربية فى خلال
القرن التاسع عشر الميلادى ، قد اضطرت ، فى خلال عصر
القرن العشرين الميلادى وعلى امتداده ، وعلى نحو متزايد
أقوى وأقوى ، الى التخلي عن تفرداها بالسيطرة الداخلية
وبالمنافع الى قوى جديدة كانت تعد ، أى هذه القوى ،
منتمية الى أسفل درجات المجتمع الغربى ، ومنها العمال
واليهود والسود . ان السادة لم يعودوا هم السادة .

٥ - وقد كان من النتائج المباشرة التالية على الفور
على نهاية حربهم الكبرى الثانية ظهور الدعوة الى «الوحدة
الأوربية» ، وما أبعد هذا عن التوجه الأساسى السياسى
لنموذج الدولة الأوربية منذ عصر نهضتهم، إلا وهو نموذج
الدولة القومية الغيورة على سيادتها . ونرى فى هذه الأيام
أن موقف انجلترا المعاند لتلك «الوحدة الأوربية» ، انما
هو التعبير المتسق عن النموذج التقليدى الأساسى للدولة
فى الحضارة الأوربية . لقد تغيرت الأيام ، وأنهارت

النماذج وهى تأخذ فى التبدل الجوهري من نقيض الى نقيض . ثم يقولون ان الحضارة الغربية لا تزال هى هى!

٦ - ومن أيسر علامات اندفاع المجتمعات الغربية الى مدارج الأزمة الحادة والاشراف على التحلل ، انتشار الروح العدوانية الجارفة وامتدادها الى شتى الميادين على التقريب ، ومن الحرب الى القناء . ويمكن تتبع هذا المظهر فى ميدان انتشار الجريمة وتنظيمها ، وميدان الاقتصاد والصناعة وميدان الحروب ، وفى الفنون ، وليس عليك ألا تتبع خيط الروح العدوانية فى مجال واحد فقط ، ألا وهو الانتاج السينمائى الأمريكى . ان سيادة التوجه العدوانى مظهر مرضى ، وما أبعد النظرة الناعمة التى تظهر فى تصاوير عصر النهضة الأوربية ، والدالة على الأمن والطمانينة والرضا والتطلع المتفائل ، عن النظرة الشرسة المهاجمة القلقة ، والتى تنم عن نكد الحياة الدائم، فى نظرات مشهورى الغرب اليوم ، من أميراتهم الى مغنيهم وممثلهم الى عمالهم .

٧ - إن هذه الروح العدوانية تنتهى الى العدوان على الذات نفسها ، ويمكن أن نفرّد معلما قائما بذاته لتحلل الغرب ، وممثلا فى الاتجاه الجارف نحو الهروب من الواقع ، دلالة عدم الرضا والرفض ، والذى يتمثل فى ازدياد معدلات الانتحار ، وعلى الأخص فى الانتشار الهائل

لتعاطي المخدرات بأنواعها ، وحتى وصل ذلك الى أعلى
أماكن السلطات السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها .
ويصاحب هذا سيادة نغمات « الاغتراب » وروح التشاؤم
والشعور بالمعزلة والرغبة الشديدة في خلع الجلد والتحول
الى الآخر المغاير (راجع انتشار جماعات الدخول في
البوذية والاسلام وغيرهما من التوجهات اللاغربية) . ان
هذا الهرب من الواقع يتناقض أعظم تناقض مع الاقبال على
الواقع ، بل والهجوم عليه ، الذي كان يميز البورجوازي
الغربي في القرن التاسع عشر الميلادي .

٨ - هذه بعض العلامات العامة البارزة الدالة على
على تواجد الحضارة الغربية في حالة أزمة حادة . ومن
نافلة القول أننا لم نفعل شيئاً ، في النقاط السابقة ، غير
وضع الأساسيات ، ولم نقدم الأمثلة التفصيلية ، ولم نشر
الى الممهديات ، كما لم نشر الى ظواهر مقابلة في مرحلة
الانهيار في حضارات أخرى خلال التاريخ . وهذا كله
من اختصاص جهد آخر يستقصى المسائل بشأن انهيار
الغرب .

(ج) علامات خاصة للأزمة في بعض الميادين :

١ - ان جوهر الأزمة هو فقدان الاتزان وفقد السيطرة
على عناصر الموقف وزيادة درجة التوتر والقلق والوجود
على مفترق طرق ، حيث يهجر الطريق القديم التقليدي

ونصبح على مفتتح طريق و طرق لاندرى نتائج السير فيها ،
لأن عناصر الخبرة التقليدية لاتستطيع أن تكون ذات نفع
لنا بصدد الموقف الجديد . وسوف نرى مصداق ذلك كله
فى السطور التالية التى تشير سريعا الى بعض علامات
أزمة الغرب فى بعض الميادين البارزة ، مع المقارنة دائما
بأوضاع الاستقرار والنضوج الكامل الذى شهده عصر
القرن التاسع عشر الميلادى .

٢ - اذا نظرنا الى الميدان الاجتماعى أولا ، وهند
حربهم الكبرى الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ م ، وجدنا ان سمة
الشقاق بوجه عام هى السمة الجوهرية المميزة لعلاقات أهم
القوى الاجتماعية ، ومن المفهوم أن هذا لايعنى أن يكون
الشقاق ظاهرة دائمة تسود السطح فى كل الأوقات وعلى
شتى الجبهات ، وانما يكفى أن تكون دورية الظهور بارزة
فى أهم المجالات ، وان يكن ذلك على درجات شتى بحسب
دواعى الأحوال وظروف كل مجال على حدة . فاذا نظرنا
الى مجال علاقات العمل مثلا ، وجدنا الشقاق بارزا
وحاضرا دوما على التقريب (ولكن بدرجات وعلى أشكال
مختلفة بحسب البلاد ، فهو أقل درجة فى ألمانيا عموما وأشد
فى فرنسا وإيطاليا ويتخذ مسارب شبيه سلمية فى أمريكا
الشمالية بينما يختلف فى أوروبا الشرقية حتى وقت قريب ،
وهاكذا) ، وكثيرا ما نرى « أصحاب الأعمال » (أى
الرأسماليون) فى مواجهة تشبه الحرب مع نقابات العمال ،

بل أحيانا ما تصارع النقابات العمالية الحكومة نفسها ، وقد رأينا منذ سنين قليلة اضرابا عماليا يمتد لشهور في بريطانيا ويكلف الخزينة البريطانية آلاف المليارات من جنيهااتهم . وهناك شقاق جوهري بين الأجيال أيضا : بين الشباب والآباء وسلطات المجتمع ، وليس ببعيد « ثورة الشباب » في النصف الثاني من ستينات القرن العشرين الميلادي . وهناك كذلك خلاف عميق ، وان لم يظهر على السطح دوما ولم يجد من يحسن التعبير عنه ، بين أصحاب مصانع الانتاج وجمهور المستهلكين لانتاجهم ، وهو جانب من جوانب ما سماه الغرب منذ بضع عقود بظاهرة «المجتمع الاستهلاكي» ، التي تؤدي الى استغلال الانسان ليكون مجرد مستهلك للمنتجات التي تقدمها الطبقة الرأسمالية .

هذه ثلاثة مجالات وحسب للشقاق الداخلي العظيم في باطن كيان الحضارة الغربية ، واذا قارنا أوضاع نفس المجالات في خلال القرن التاسع عشر الميلادي لم نجد هذا الشقاق ، بل استقرارا وسيطرة للبورجوازية وللآباء على عناصر الموقف . ومن الواضح اننا نعتبر الحضارة الغربية حضارة الطبقة البورجوازية ، فالوضع « الصحى » لتلك الحضارة يعنى سيطرة تلك الطبقة في شتى المجالات ، والعكس بالعكس .

٣ - وفي ميدان العلم والتكنولوجيا ، مقارنا بما كان عليه الحال في القرن التاسع عشر الميلادي ، نستطيع أن

نقول ان الحضارة الغربية بعيدة عن السيطرة على امواج الاكتشافات والاختراعات الجديدة ، بحيث يمكن أن نتحدث عن « فقد الاتزان التقليدي » فى هذا المجال أيضا . صحيح أن البعض قد يرى هذه الخصوبة علامة ما يسمونه « بالتقدم » ، وبالتالي انها علامة حياة وقوة وليس العكس ، ونحن لا ننكر أنها قد توحى بهذه المعانى ، ولكننا نلاحظ أن القدرة التكنولوجية للحضارات بوجه عام تكون أظهر بصفة عامة فى مراحل أزمتها التالية على بلوغها النضج ، ولكن ليس هنا مكان اثبات هذه القضية العامة . ان ما نريد الإشارة اليه هو زيادة الايقاع فى حركة سيل الاكتشافات والمخترعات ، بحيث انه أصبح من الصعب على الحضارة الغربية السيطرة على عناصر هذا الموقف . واذا كان صحيحا ما يقوله البعض من أن الغرب يشهد « ثورات » صغيرة فى ميادين العلم وميادين التكنولوجيا كل بضعة سنين قليلة ، فان هذا ليس دليل صحة على الفور ، لأنه من المهم السيطرة على المعارف والمخترعات السابقة ، وهذا يتطلب وقتا ذا حد أدنى من الامتداد ، قبل ان تهبط عليك تلك الجديدة .

٤ - أما اقتصاديا ، فان معدلات البطالة زادت زيادة فاحشة ، وخاصة فى العقود الأخيرة ، بل أصبحت عنصرا ضروريا من عناصر البناء الاقتصادى الغربى ، والبطالة تعنى وضع شريحة عريضة من أعضاء المجتمع موضع

« الاستلاب » • وقد سبق أن أشرنا الى الصراع العمالي والى استغلال مجتمع المستهلكين من قبل الشركات المنتجة الكبرى ، ونضيف استخدام الدعاية كأداة « لا انسانية » فى استثارة حاجات مصطنعة لدى الجمهور ، ولصالح المنتجين الرأسماليين وحدهم • ان الوضع الاقتصادى للفرد العادى الغربى يعنى أنه أصبح مجرد « أداة » فى يد أصحاب المشروع الرأسمالى ، بينما الحضارة الغربية كانت تدعى أنها تجعل الكرامة الانسانية من محاور اهتمامها المركزية •

٥ - ويرتبط بهذا كله ارتباطا مباشرا ، انتشار النزعة الآلية على نحو يهدد الكرامة الانسانية ، ودلالته فيما يخص موضوعنا أنه يتناقض بالكلية مع دعوى الحضارة الغربية منذ عصر نهضتها بأنها حضارة « انسانية » • ان انتشار استخدام الآلة ، وسرعته تزداد فى متواليه شبه هندسية ، يهدد القيمة الشخصية التى للانسان ويؤدى فى النهاية الى ضمور القدرة على الحرية ، تلك القيمة المركزية بين قيم الحضارة الغربية • لقد ظهرت الآلات الغربية الرئيسية منذ القرن التاسع عشر الميلادى ، ولكنها كانت تحت سيطرة التوجه الانسانى ، وما يحدث الآن ، وبازدياد ، هو العكس • لقد فقد ، وربما الى الأبد ، الاتزان التقليدى الذى كان يميز عصر ازدهار الحضارة الغربية ، وعصر فقد الاتزان هو عصر الأزمات وتمهيد للتدهور والتحلل الداخلى رغم

ماقد يبدو على غير ذلك على السطح . مرة أخرى يتحول
الانسان من مركز للقيم الى مجرد أداة للثروة الرأسمالية .
لقد خانت الحضارة الغربية مبادئها .

٦ - ومن مظاهر أزمة الحضارة الغربية (وخاصة من
حيث فقد التوازن وفقد السيطرة التقليدية) ظهور قوى
سياسية جديدة على المسرح الداخلى ، ومن ذلك أحزاب
الاهتمام بالبيئة أو ما سماه الأوربيون بأحزاب « الخضر » ،
نسبة الى اخضرار الطبيعة (فى مواجهة النزعة الآلية
وتحطيم البيئة الطبيعية لصالح رأس المال) ، وزيادة مقاومة
الأمم المستغلة على المسرح الدولى لاستغلال السيطرة
الغربية لها ، فرغم أن ماسمى أخيرا « بالعالم الثالث »
لا يزال تحت سيطرة الغرب ، الا أن مقاومته للسيادة
الغربية مقاسة الى أوضاع القرن التاسع الميلادى أعظم
بكثير .

٧ - وإذا أتينا الى ميدان الفنون ، وجدنا انقلبا كاملا
على شتى التوجهات « الكلاسيكية » للقرنين الثامن عشر
والتاسع عشر الميلاديين ، بل وسيادة مظاهر روح العدوان
فى الحد الأعلى وروح القلق والتوتر الشديد فى الحد
الأدنى . ولهذه الأزمة العميقة مظاهر فى شتى الفنون
الغربية ، من أدب الى فن تشكىلى الى موسيقى الى غيرها ،
ولا يسمح هذا المجال بالتمثيل مجرد تمثيل لها جميعا ،
لأن الموضوع يتطلب الافاضة بطبيعته .

٨ - أخيرا وليس آخرا ، فان تطور الفلسفة الغربية فى القرن العشرين الميلادى يدل على نفس الدلالة ، ويكفى أن نشير الى أن المفاهيم المركزية للفلسفة « الوجودية » ، التى شغلت عقول كثير من الغربيين ثلاثة عقود أو أكثر ، ما هى الا العزلة والفشل والموت وما شابهه • ان تفاعُل الفلسفات الوضعية السائدة فى خلال القرن التاسع عشر الميلادى لم يعد له وجود ، ولا توجد كذلك فلسفة شاملة كتلك التى كنا نناقها فى العصر الغربى السابق على بداية الأزمة الكبرى •

خامسا : أسباب الأزمة وتاصيلها :

١ - نقصد « بالتأصيل » ، تأصيل الأزمة ، شيئين : أولا ، محاولة رد الأسباب الى عدد محدود من المبادئ العامة ، وثانيا : محاولة تقديم صياغة ذات طابع منطقي للتناقض القائم فى قلب تنظيم الحضارة الغربية والذى أدى بالضرورة الى فقد التوازن الأساسى بين العناصر الأصلية المكونة لتنظيم الغرب ككيان تاريخى • ونموذج التوازن الأساسى هو أحوال الحضارة الغربية فى مجتمعاتها المتقدمة (وبالتالى النموذجية والمثلة لها) على نحو ما انتهت اليه فى القرن التاسع عشر الميلادى ، الذى هو عصر النضوج الكامل والقمة والازدهار •

٢ - ولكننا نبداً بالاشارة الى ما نعتبره أسباب الأزمة

الحالية للغرب (والممتدة منذ عام ١٩١٤ م . والى مستقبل
ليس من السهل تحديد مداه لأننا بازاء ظواهر انسانية) .

٣ - وأول هذه الأسباب وأهمها وأبسطها (وأبسط
الأسباب أعظمها) أن الحضارة الغربية وصلت الى قمة نموها
فى القرن التاسع عشر الميلادى ، على نحو ما بينا فى قسم
سابق ، ومعنى ، « القمة » هنا هو تحقق ما كانت تبتغيه
الحضارة الغربية منذ قيامها . ولعل « قدس الأقداس »
فى بناء الحضارة الغربية هو مبدأ « الفردية » ، أى القول
بأن الفرد هو مركز التكوين الاجتماعى وأنه قيمة بذاته ،
بل أنه قيمة مطلقة . وبالفعل فإن الحضارة الغربية هى
حضارة الفرد البرجوازى الطموح المنتج من أجل تحصيل
الثروة والتمتع بالحياة . هذا الفرد البرجوازى وصل الى
الى قمة ازدهاره فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وبهذا
يكون التكوين الحضارى للغرب قد « أكمل » وظيفته فى
خدمة الطبقة الوسطى ، وريثة النبلاء والملوك والكنيسة
جميعا ، وهى الطبقة صاحبة المشروع الاقتصادى الغربى
النموذجى ، أى المشروع الرأسمالى . وبعد هذا « الكمال »
تبدأ عوامل التناحر الداخلى ، وعلى شتى الجبهات .
سياسيا وطبقيا واقتصاديا وحربيا وثقافيا الى غير ذلك .
وقد سبق أن أشرنا الى مفهوم « منحنى الخط البيانى » ،
ومن الطبيعى أن يبدأ المنحنى فى الهبوط فور وصوله الى
أعلى درجة فى ارتفاعه . ان الهبوط ضرورة فى كل نمو

انسانى وحيوى ، وهو ما نلاحظه فى شتى جوانب الحياة ، فى نمو النبات والحيوان والانسان ، فى منحنيات العمل والجهد عند الانسان ، بل وفى عمل الآلة ذاتها ، وهى بمعنى ما نتاج انسانى . ومن المنطقى أن نطبق نفس المفهوم وان نتوقع نفس النتائج فى حالة الحضارة ، وهى كيان ذو سمة انسانية بالضرورة ، ثم تؤيدنا ظواهر التاريخ . والا فليدنا معارض على حضارة خلدت فى التاريخ !

٤ - لم تستطع الحضارة الغربية فى خلال القرن العشرين الميلادى ، وهو القرن الخامس من سنى نموها على التقريب ، لم تستطع استعادة التوازن التقليدى القديم فى عصرها السابق ، بسبب ظهور عناصر جديدة فى الموقف غير متوافقة أو منسجمة مع عناصره السابقة . أما فيما يخص أهم القوى السابقة التقليدية فى موقف الحضارة الغربية ، فقد كانت البورجوازية ، وهى التى دخلت فى صراع مع قوى النبلاء والملوك والكنيسة فى داخل الحضارة الغربية ، ومع شعوب العالم الأخرى جميعا من خارجها . كانت البورجوازية هى القوة الكبرى المسيطرة فى الحضارة الغربية ، ولكن هاهى تظهر أمامها قوة جديدة كانت منسحقة من قبل ، ألا وهى قوة البرولتاريا ، أو طبقة العمال ، فى مواجهة طبقة أصحاب الأموال (وليس من المصادفات أن تقوم الثورة الاشتراكية فى روسيا بعد ثلاث سنوات

وحسب من قيام الحرب الكبرى الأولى فى أوربا عام ١٩١٤ ،
وهى سنة البداية التاريخية المتعينة للأزمة الغربية فى
رأينا) ، ثم أخذت فى الأعوام الخمسين الأخيرة تظهر قوة
ثالثة هى ماسمى باسم قوة « أصحاب الياقات البيضاء » ،
أى تجمع الموظفين والفنيين ذوى التخصصات العالية
تكنولوجيا والمديرين ، وأخيرا ظهرت قوى « العالم الثالث »
خارجيا ، وهى قوى نجحت أحيانا فى اثبات قدرتها على
إعاقة احكام الغرب لسيطرته الاستعمارية . وربما كان
من عناصر الموقف الجديد للحضارة الغربية فى عصر
أزمتها مايمكن أن نسميه « بمنطق الآلية » ، حيث أصبح
لاستخدام الآلة بتوسع فى الصناعة وفى الحياة اليومية
على السواء نتائج ومستلزمات تعدت بكثير قدرة وإرادة
أصحاب المشروع الرأسمالى على السيطرة عليها . ان
الفكرة هنا تقرب من تصور « الشياطين التى تنطلق من
القمقم » .

وبإيجاز نقول : ان السبب الثانى للأزمة الغربية هو
عدم قدرة الحضارة الغربية (ممثلة فى قواها التقليدية
المركزية) على استعادة التوازن النموذجى التقليدى .

٥ - السبب الثالث : انقلاب الحضارة الغربية
على نفسها بنفس مبادئها ، أى التنكر للذات
والانقسام على الذات . ويمكن أن نلخص أهم
خصائص الحضارة الغربية فى المبادئ والاتجاهات

الكبرى التالية : الفردية والعقلانية والنزعة الكمية والآلية .
ويمكن رد النزعة الكمية والتوجه الآلى ، على نحو أو آخر ،
الى مبدأ العقلانية ، فيكون لدينا أساسان تكوينيان لبناء
الحضارة الغربية هما : الفردية والعقلانية ، وان كان يمكن
رد المبدأ العقلانى نفسه ، بوجه ما ، الى مبدأ الفردية ،
فيصبح هذا المبدأ الأخير هو العمود المؤسس لشتى توجهات
الحضارات الغربية فى سائر الميادين . ولعل أهمية المبدأ
الفردى ، وامكان رد العقلانية اليه كذلك ، تظهر فى هذه
العبارة التأسيسية فى التكوين الفكرى لحضارة الغرب :
« أنا أفكر اذن أنا موجود » ، وهى ما يطلق عليه
« الكوجيتو » عند ديكارت . فى هذه العبارة القصيرة
الخصبة هناك « أنا » ، وهو ما يدل على مبدأ الفردية ،
وهناك « أفكر » ، وهو ما يدل على مبدأ العقلانية ، وتفكيرى
أساس أو مؤسس لسائر الوجود ، من وجود الاله الى وجود
الأشياء (عند ديكارت الفرنسى بطبيعة الحال ، ت
١٦٥٠ م) . فيمكن أن تقول ان المبدأ الأكبر فى الحضارة
الغربية هو الفردية .

ونقول ، أولا ، بايجاز قبل التفصيل ، ان الحضارة
الغربية ، فى خلال تطورها الطويل ، قد خاضت هذا المبدأ
وهذه القيمة معا ، أى الفردية . فنرى أن النظام الاقتصادى
الغربى قد تحول الى نظام لاستغلال البشر الآخرين ، بمن
فيهم أفراد الحضارة الغربية أنفسهم ، فضلا عن استغلال

أفراد الأمم والثقافات المغايرة ، وهو أحد جوانب ظاهرة « الاغتراب » أو « الاستلاب » التي بدأ التنبيه اليها منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادي وأصبحت واقعا يعيشه سائر الغربيون على نحو أو آخر .

وجوهر الاغتراب هو تحول الانسان الى أداة أو وسيلة ، أو تحوله على أحسن الظروف الى مستهلك لمنتجات أصحاب رأس المال ، وهو ما يدل على معنى الأداة من جانب ما . وذلك كله في مقابل كون الانسان قيمة في ذاته . ان الذات الغربية تتذكر لنفسها وتنقض على مبادئها ويحدث الانقسام ، وهذا معنى التناقض الداخلى الذى أصبحت تعيشه ، وتعيه ، الحضارة الغربية ، التناقض ما بين مبادئها فى منطلقاتها والنتائج الفعلية التى وصلت اليها فى خلال تطورها . ان الانقسام على الذات هو قمة الأزمة وهو أكبر علاماتها فى نفس الوقت .

وتأتى الآن الى بعض تفصيل لما أوجزناه فى السطور السابقة ، لنفهم كيف انتهت الحضارة الغربية بالاعتداء على أهم مبادئها ، ألا وهو مبدأ الفردية ، بما يثير شعور مواطن بلادها ، على اختلاف فى الدرجة مع تنوع الظروف والأحوال ، بأنه فى أزمة ساحقة (١) .

(١) نقتطف التحليل التالى من دراسة لنا أعدناها عن عام ١٩٧٧ م بعنوان : « أزمته ومشكلتنا ، أو ما يخصهم وما يخصنا » ، ولم تنشر .

لقد قامت الحضارة الغربية ، منذ عصر « نهضتها » ، على أساس أنها تتميز عن غيرها ، وعلى الأخص عن سابقتها الحضارة المسيحية ، بأن محور اهتمامها الأول انما هو الفرد ، ويمكن بالفعل ، كما أشرنا ، أن نفسر منجزاتها الجوهرية ابتداء من هذا المفهوم المركزي . فالتحرر من سلطة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية هو تحرر العقل ، أى عقل الفرد ، من ريقه التقليد . وظهور الممالك الجديدة فى أوربا الغربية واستقلالها هو انتصار للملوك الأفراد ، ثم لأممهم بطريق غير مباشر وكأنها أفراد ، ضد سلطان الامبراطوريات الجامعة السابقة . وظهور قوة التجار ورجال المال ، ثم قوة أصحاب المصانع من بعدهم ومنتهم ، هذا كله هو انتصار للفرد الذكى المجتهد ضد مجد النبالة التقليدية التى تكتفى بهالة « الأصل » والحسب ، ولا تسعى ولا تكدح لجمع المال وتكثيره . ويبدو لنا أن الفترة الممتدة من عصر النهضة الأوربية الى عصر الثورة الفرنسية هى فترة نشأة وتكوين وتحضير لظهور الكيان الاجتماعى الذى سيجسد انتصار الفرد ، عقلا و ارادة وسلطة سياسية وسلطة اقتصادية (بل وكذلك سلطة دينية ، على ما يظهر من توجهات المذهب البروتستانتى الجديد ، والممثل أكثر من غيره لجوهر توجهات الحضارة الغربية » ، اقصد بذلك الطبقة الوسطى ؛ أو مايسمى فى الغرب بالبورجوازية . هذه الطبقة هى صانعة الثورة الفرنسية ، وهى المستفيدة منها . وسوف يشهد القرن التاسع عشر

الميلادى ، فى أوربا الغربية على الأخص ، قمة ازدهار هذه الطبقة ، سواء على مستوى السياسة الداخلية ، فهى الحاكمة أو المتحكمة على الأقل ، أو على مستوى السياسة الخارجية ، مع وصول حركة الاستعمار الى أقصى قممه .

ولكن ما أن تصل الطبقة البرجوازية الى قمة نجاحها حتى تأخذ فى التناحر فيما بينها على مستوى الدول القومية ، وذلك بعد تعاظم قوتها الاقتصادية على اثر استقرار التنظيم الصناعى وانتشار استخدام الآلة . فهى تتناحر فيما بينها على الأسواق وعلى المستعمرات ، وكان لابد من تصفية الحسابات ، فكانت الحرب الأوربية الكبرى الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) ، وكان انهيار التوازن بشكل حاسم ، وكان بدء تفجر الأزمة بشكل ظاهر .

قلنا ان قلب الحضارة الغربية هو مفهوم « الفرد » ، ويأتى انهيار التوازن من أن تطور تلك الحضارة خلال القرن التاسع عشر الميلادى لم يكن فى الواقع الا اعتداء متزايد القسوة على قيمة « الفرد » تلك : فبعد وصول الفرد البرجوازى الى السلطة (الاقتصادية فالسياسية) ، وتحقيقه لما كان يسعى اليه منذ ظهور الحضارة الجديدة فى عصر النهضة الأوربية ، ألا وهو « الحرية » (وهى القيمة الشعورية والسلوكية الناتجة مباشرة عن القيمة الوجودية الأساسية التى هى قيمة « الفرد » ، لأن «سلطان»

الفرد لا يظهر الا من خلال الحرية) ، وجد أن عليه ألا يجعل طبقات أخرى تصل الى السلطة لتشركه اياها ، وأن « الحرية » انما هي حرিতে وحده ، ورأى الفرد البرجوازي الغربى كذلك أن من حقه أن يزيد من قوته الاقتصادية بأى ثمن ، وليس لأحد أن يعارض توسعه (« دعه يعمل ، دعه يمر ») ، وبرر ذلك بأن هذه المعارضة ستكون معارضة « التقدم » (لاحظ تكوين الجهاز الايديولوجى المناسب بالتدريج) • ولا نستطيع أن نفصل فى تلك الحركة هنا • ولكن النتيجة هاهى : ازداد ايقاع الانتاج الصناعى ، وكان المتحمل لآثاره هو العامل المسحوق فى المنجم والمصنع فى المحل الأول ، كما اتسعت دائرة استخدام الآلة ، وكان المتحمل لآثار ذلك أسر المتبطلين عن العمل • وقامت الحروب بين الدول الأوربية ، أى بين طبقاتها الحاكمة وكلها من البرجوازية أو تمثل مصالحها ، وكان المتحمل لآثار الحروب ، فى المعركة وفى الخنادق وفى المدن حيث الضائقة الاقتصادية ، هم مجذوعات المجتمع الأخرى • وجد الفكر الأوربى ، منذ طلائع التوجه الاشتراكى وعند غيره كذلك ، أن قيمة « الفردية » المزعومة ، انما هى قيمة لا ينتفع بها الا البعض ، وأن الطبقات البرجوازية بسياساتها الاقتصادية انما تترد على قيمة الفردية تلك تنهش فيها وتضحى بها على مذبح « حريتها » هى ، والتي أصبحت ، « واقعا » ، حريتها فى « استغلال »

الأفراد الآخرين (بالمعنى الحرفى : « أخذ الغلة من ») ،
حتى لو كانوا هم أنفسهم أوروبيين .

وهكذا ظهر أول تفسيح كبير فى نسيج الحضارة
الأوربية : الصراع بين صاحب العمل والعامل ، أى بين
صاحب رأس المال وصاحب القدرة على العمل ، وكان
ظهور الحركات الاشتراكية بأنواعها ، ثم كان قيام تلك
الدولة التى اعتبرتها الدول الغربية الأخرى ، وعن حق
من وجهة نظرها ، خطرا عليها يهدد حياتها ذاتها ، إلا
وهى دولة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية
(١٩١٧ م) .

وقد خلفت الحرب الأوربية الكبرى الأولى (١٩١٤ -
١٩١٨ م) من الدمار ماروع الضمائر ، وأولد شعورا
عاما حادا بأن الحضارة الأوربية فى أزمة ساحقة ، حتى
بين بعض مفكرى الطبقة البرجوازية نفسها . ولم تزد
التطورات التالية تلك الأزمة إلا حدة وقوة واتساعا ، لأن
نمو الصناعة سيوجه هو الآخر ضربة قوية الى مفهوم
« الفردية » . ذلك أن قولنا ان الحضارة الغربية تضع
« الفرد » فى مركز اهتمامها يعنى ضمن ما يعنى انها ترى
أن « كرامة » الفرد هى « قيمة » مطلقة ، وقد رأينا من قبل
تحطم هذه القيمة من جهة ظروف العمل ، ولكن هاهى
تتحطم مرة ثانية ، وربما على نحو أقوى وأقوى ، مع

انتشار نوع الحياة الجديد الذى يعتمد على الآلة أو يريد أن يعتمد عليها ، فى كل أمر .

لقد غزت الآلة كل ميدان أو يكاد ، ويحدث ذلك بدعوى تحقيق قدر أكبر من الفاعلية والدقة والسهولة ، وعلى الأخص من أجل زيادة الانتاج وتقنيته وتخصيصه . والواضح الآن أنه رغم كل ما قد يبدو من مزايا يستفيد بها « المستهلك » (وهذه كلمة هامة من كلمات العصر) إلا أن المنتفع الأول إنما هو المنتج ، أى صاحب الصناعة الآلية ، وليس العامل والمستهلك معا إلا أدوات أو آلات بالمعنى الحرفى البعيد فى خدمة مصالح صاحب الصناعة . والحق أن من يقول « الآلة » اليوم يقصد بها فى الواقع ما استغنى عن الانسان ، بعبارة أخرى فإن الآلة تعنى غياب الانسان ، وهى ، فى أحيان تزداد كثرة شيئا فشيئا ، تتجه الى أن تكون ما يعارض الانسان ، أى ضد الانسان . ان الآلة بسببها الى أن تصبح الآن فى الغرب رمزا للقهر وتجسيديا لقيمة الكم (وهذه قيمة أخرى لا تقل أهمية عن قيمة « الفرد » فى الحضارة الغربية ولكننا لم نتعرض لها هنا) . انها المصير الذى ينتظر الانسان : فناهيك عن بدايات اختراع « الانسان الآلى » واستخدامه بالفعل فى ميادين شتى ، فإن الانسان الحى نفسه يجد حياته وقد تحولت فى المصنع أو المكتب الى حياة منظمة مؤقتة يختفى فيها عنصر « المبادرة » والطابع الشخصى . حتى أوقات الفراغ أصبحت « صناعة » ، وكل شىء فى العطلات الصيفية فى

الجبل أو على البحر أصبح « منظما مرتبا » (كما تشير الى هذا أغنية فرنسية لمغن معروف) ، وتقوم بهذا مصانع جديدة تتخذ اسم « نوادى أوقات الفراغ » ، ولكن يديرها نفس رجال البنوك الذين يمولون مصانع الحديد والمضاربات فى سوق الأوراق المالية وغير ذلك من « النشاطات » . حتى الحب تدخل فى ساحته الآلة ، ويتجه الى أن يكون آليا بالمعنى العميق لهذا التعبير ، أى ما يتوفر فيه عنصر « الانتاج على نموذج متكرر » (ما يسمى series و série بالانجليزية والفرنسية على التوالى) ، وبالتالى عنصر « التوحيد » أو « التاطبق » (Uniformity ، Uniformité) . وللقارىء أن يتذكر هنا التجارب التى تجرى حول « انتاج » أطفال بدون الحاجة الى ذكر وأنثى من دم ولحم ، ولكن لا أجد أشد دلالة على المعنى المقصود من فيلم تليفزيونى رأيتة حوالى عام ١٩٧٠ م . فى التليفزيون الالمانى (المانيا الغربية) ، ويعرض للحياة الخاصة لأحد كبار موظفى الشركات ، فنفس الحركات يفعلها فى كل مرة يستقبل فيها صديقته : يدخل شقة ، يضىء الأنوار ، يجلس على نفس الكرسي ، يخلع حذاءه ، يضعه فى مكانه ، يخلع مالبسه قطعة قطعة ، وفى كل مرة يعتنى بثنيها الثنية الملائمة ثم يقوم الى صاحبتة فى الفراش ، ثم يقوم عنها ، ويعود الى نفس الأفعال السابقة ، ولكن معكوسة الترتيب ، كل ذلك يجرى فى صمت تام وفى جدية وصرامة . لقد أصبح

الفعل الجنسي ، وهو فى النهاية أعلى أفعال التواد بين
البشر ، أصبح فعلا « آليا » ، وأصبح الانسان فيه كالعامل
الذى يقف أمام الآلة ويكتفى بالاستجابة لحركاتها ، وهى
دوما نفس الاستجابة ، لأن الآلة لا تغير من حركاتها .

مكذا اذن تتحول الآلة ضد الانسان ، ويتجه الانسان
الغريبى الى أن يكون هو نفسه كالألة . وهكذا أيضا تتجه
الحضارة الغربية ضد ذاتها، لتضرب أحد مبادئها الأساسية
المتضمنة فى قيمة « الفرد » ، ألا وهى كرامة الانسان .
وربما كان أعظم القطاعات احساسا باهدار الكرامة هم
العمال فى المصانع الكبيرة التى تستخدم مايسمى « بأحدث
أدوات الانتاج » : فأول وأهم ما يشكو منه العامل الغربى
هو أن العمل قد تفتت الى درجة لا تتصور ، بحيث ان
العامل أصبح يقوم فى تلك المصانع بنفس الحركة الواحدة
طوال يوم عمله ، فاذا كان مثلا فى أحد مصانع انتاج
السيارات فان له عملا محددًا لا يتعداه ، وليكن مثلا الدفع
بمسار فى فتحة ما ليقوم زميله التالى بالدق عليه وهكذا،
حتى تخرج السيارات واحدة بعد الأخرى فى نهاية المطاف،
وقد مرت على مئات العمال كل منهم يقوم بعمل واحد
وواحد فقط طوال اليوم . ومن هنا ظهرت كثرة الشكوى
من الانهيار العصبى ومن الكآبة وغير ذلك ، حتى ان العامل

لا يخرج من عمله الا ليرتاح منه وليسـتعد له فى يومه
التالى ، وهكذا تتلخص حياة العامل كما عبر عنها بعض
الطلبة فى أحداث ١٩٦٨ الشهيرة فى فرنسا : « العمل
فالمترو فالنوم » ، وهكذا دواليك
(Boulot, Metro, Dodo) .

فاذا أنت أضفت الى هذا كله مشكلات التلوث فى
البيئة ، وما يسمى « بالمجتمع الاستهلاكي » ، واحاطة حياة
الناس بنظام محكم رهيب من الاعلانات بما لايدع لأحد حياة
خاصة شخصية بالمعنى الحق ، اتضح لك فى سهولة ان
تطور الحضارة الغربية فى أشكالها الأخيرة انما هو
مضاد للانسان ، وبعبارة أخرى ضد المبادئ التى انطلقت
منها الحضارة الغربية ، ومن هنا كان الانقسام على الذات
بل ورفض الذات الذى يميز أزمة الانسان الغربى منذ عقود
وحتى اليوم : فهو يتعلم فى المدرسة وفى كتب عظام ممثلى
الحضارة الغربية أن الفرد هو أعلى قيمة فى الحياة ،
ولكن ما هو يداس على الفرد من كل ناحية . ان هدف
الحضارة الغربية يصبح غير ممكن التحقق اللهم الا لفئة
ضئيلة جدا ، أما الباقون فان دونهم وتحقيق حرية الفرد
(ممثلاً فيهم) ، وتحقيق كرامته ، صعب وصعب تجثم على
صدورهم وهى فى طريقهم كالجبال ، لأنها صعب نابعة
من محض طبيعة النظام الاجتماعى الذى استقر عليه

الغرب ، وهاهى موجزة فى كلمتين : مادام الفرد هو الأساس فان التجارة حرة ، ولكى تزدهر التجارة تظهر الصناعة ، ولكى تتقدم الصناعة وتتوسع لابد من احلال الآلة تدريجيا محل الانسان مع توسيع دائرة المستهلكين واستثارة شهواتهم اصطناعيا ، كما أن ظهور الصناعة وتقدمها يؤدى بالضرورة الى أن يتحمل أفراد آخرون نتائج هذا ، فظهر استغلال الحاجة الى العمل ، وظهرت سيطرة الآلة تدريجيا على شتى جوانب الحياة ، وفى كلتا الحالتين تصبح قيمة « الفرد » وكرامته مجرد دخان فى الهواء . واذا كان المتضررون فى الحالة الأولى هم طبقة العمال بصفة خاصة فان الضحايا فى الحالة الثانية انما هم المجتمع الغربى بأسره ، وهو أمر على جانب عظيم من الأهمية ويدل على مدى اتساع دائرة الأزمة . لقد فشلت الحضارة الغربية فى تحقيق هدفها الأكبر لكل أبنائها . فكان لابد من الأزمة ، وقد بدأت .

سادسا : خاتمة :

ان ما تجمعه الصفحات السابقة ليس الا اشارات سريعة وغير مفصلة ، ولكنها جوهرية ودالة بذاتها ، ونرجو أن ينتهى القارئ معها الى أن الحضارة الغربية فى أزمة بالفعل ، وان هذه الأزمة أزمة حياة وموت ، أو هى دليل دخول حضارة الغرب الى مرحلة الشيشوخة

الممهدة للتحلل والانهيار • ولكن الأهم من ذلك ، هو أن تكون تلك الصفحات دافعا الى التفكير فيما هو أهم : فإين نحن من هذا كله ؟ وما مستقبلنا ؟ وما واجباتنا الحقيقية ؟ وما هو شكل الحضارة الجديدة التي نريدها لأنفسنا ثم لبني البشر جميعا من بعد ؟ هذه أسئلة للفلسفة (أو « الأصوليات ») الجديدة من غير شك •

اعادة اكتشاف الثقافة اليونانية في الوعى المصرى الحديث

اولا : تحديد الموضوع وأهميته وأطره وبعض العموميات:

كان غرضى الأصلى أن اتحدث عن الخطوات الفعلية التى اطرح فيها الوعى المصرى نسيانه للمظاهر اليونانية ، ثم أخذ ينشغل بها شيئاً فشيئاً وعلى نحو وآخر ، بادئاً مما كان قد تبقى فى الذاكرة الاسلامية على مشارف العصر الحديث ، أن خيراً وان سوءاً ، عن اليونان القدماء ، ثم ناظرا فى الحملة الفرنسية وما أتت به ، ثم منتقلا الى رفاعة العظیم فيما ألف وفيما ترجم على السواء ، ثم الى مدرسته الكبرى فى الترجمة ، ثم الى ازدهار ما أسميه بعصر الصحوة المصرية ما بين ١٨٧٨ و ١٨٨٢ ، ورجالها

العظام ثم الى الشيخ محمد عبده ومدرسته لأقف ، هكذا كان القصد والمشروع ، عند أحمد لطفى السيد وعصره ، حيث يبدأ بعده عصر الجامعة المصرية بعد الجامعة الأهلية، ويشرف على الموقف سلطان رجل عظيم هو طه حسين .
وأما ان هناك مادة مناسبة ، فهو أمر لاشك فيه ، وأما أن هناك أهمية ومناسبة للأمر ، فهو مما تدعو اليه الحاجة في اطار الدراسات التأسيسية لتطور الفكر المصرى الحديث ولستقبل الثقافة العربية ككل . ولكن مثل هذا البحث كان يقتضى متابعة دقيقة لنصوص كثيرة في مكاتب شتى ، ولم يسعف الوقت ، ولا مكنت الشواغل ، أن أفى الموضوع حقه على النحو الذى أريد ، ولذلك تحولت من العرض التاريخى الى مقال الرأى والاقتراح المنهجى ، حيث الموضوع تعالجه كل حين وآخر ونتفكر فيه كل يوم على التقريب ، وهكذا خرج هذا البحث ثمرة تفكير قديم متجدد .

وأحب أن انبه منذ البداية الى أن أهمية الموضوع تتعدى بكثير الاهتمامات التاريخية ، وتتعدى الاهتمام بالحضارة اليونانية ذاتها ، فهو عندنا ليس أقل من مجال تحضيرى لتحديد نهائى لطبيعة علاقتنا مع الحضارة الغربية ، وهذا ذاته جزء من مسألة أخطر وأخطر ، منطوقها : كيف نريد لمستقبلنا أن يكون ؟

والأطر التي يتحرك في داخلها موضوعنا أطر عديدة،
متنوعة ، ومتداخلة • ولعل أهمها هو هذا الإطار الذي
أشارت إليه الكلمات السابقة على التو : ماذا نريد لمستقبلنا
أن يكون ؟ ذلك أن تحديد موقف بازاء الحضارة اليونانية
ومنجزاتها يتضمن بالضرورة تحديدا للوجهة التي نريد أن
يتجه اليها مستقبلنا : فاما أن نعتبرها ، أى تلك الحضارة،
ضرورة وراثا ونموذجا وهاديا ، على نحو ما تفعل
الحضارة الغربية ، أو تظن أنها تفعل ، واما أن نسقطه
تماما من حسابنا ، كما أرادت التيارات المتأخرة في
الحضارة الاسلامية وانتصرت ارادتها ، واما أن نهتم به
على نحو معين سنحدده في نهاية هذه الدراسة ، لكي
تنفتح امامنا أبواب الابداع الحقة •

والبديل الأول من هذه البدائل الثلاثة ، والذي هو في
الواقع نتيجة للتعلق بركب الحضارة الأوروبية واعتبارها
النموذج واعتبار وقتها هو العصر لنا كما هو العصر
لابنائها ، نقول هذا البديل الأول، والذي يعنى تقليد الغرب
في كل شيء ، يثير عددا من المفاهيم هي بالفعل موضع
اهتمام عندنا منذ مائة عام أو تزيد ، ومن أهمها التجديد
والتقدم والمعاصرة على ما يقولون • وليس من قبيل
المصادقات أن من يدعون الى الاحتفاء بالحضارة اليونانية
واتباع سننها هم في نفس الوقت من السائرين وراء هذه
الأعلام على النحو الذي رفعت عليه عندنا • وهكذا فان

مناقشة مكان الثقافة اليونانية على خريطة الوعي المصرى الحديث هو فى نفس الوقت تناول لبعض جوانب هذه المفاهيم والمواقف .

ولكن الحق أن وراء هذا كله ما هو أهم وأهم . ذلك أن الداعين الى الخط المذكور فى الفقرة السابقة والسائرين عليه إنما ينطلقون ، بغير وعى واضح فى معظم الأحيان، من افتراضات ذات خطر عظيم ، وينبغى على الفكر التأصيلى (الفلسفى) أن يتناولها وأن يقف عندها وأن يرتفع منها الى مبادئها وأن ينزل الى نتائجها ، تلك هى الافتراض بأن الانسانية واحدة ، وأن هناك شيئاً يسمونه العالمية ، وأن العقل الانسانى واحد وممتد المسيرة . وما صلة هذا كله بموضوعنا ؟ الاجابة واضحة كل الوضوح، وتبدأ حيث انتهت كلمات الجملة السابقة . فاذا كان العقل واحداً ، لأن الانسانية واحدة تعيش فى عالمية العصر الواحد ، فإن مسيرة العقل الممتدة تلك إنما بدأت عند اليونان ، هكذا يقول الغرب وهكذا يردد المقلدون تقليداً ، وهكذا يبدأ مستقبلنا باليونان وبما أنتج اليونان ، على ما يتوهمون .

ونعود من آفاق المستقبل والاختيارات الحيوية الى مستوى أكثر دعوة الى هدوء الخواطر ، حيث يتصل موضوع هذا البحث بمسألة هى فى القلب من الدراسات العلمية التى تتناول الانسان موضوعاً لها ، وهى مسألة العلاقة بين

الثقافات وبين الحضارات : فهل تلك العلاقة ممكنة ؟ وهل هى مشروعة ؟ وعلى أى مستوى ؟ وبأى ثمن ؟ وإلى أى حد ؟ وذلك كله فى إطار الخاضر ، فى صلة ثقافة حالية بأخرى حالية أو بثالثة مندثرة ، أو فى إطار الماضى ، فى صلات الحضارات السابقة بعضها ببعض : المصرية باليونانية ، واليونانية بالرومانية ، والفارسية بالهندية ، والاسلامية بالمسيحية ، ثم بالأوربية ، الى غير ذلك . ومن المهم أن نحفظ بهذه الأسئلة الجوهرية قائمة فى الذهن فى أثناء عبور مسار هذه الخواطر الحالية .

كذلك يثير بحثنا هذا ، ولو من بعيد ، من جديد ، مشكلة قديمة ، هى مشكلة ما سُمى باسم المعجزة الاغريقية، فلو كان هناك معجزة اذن فالليونان أفضل البشر ، بل هم البشر ، ولا بد من الانضواء تحت رايتهم . ولا يتضمن هذا موقفا بازاء طريق المستقبل وحسب ، بل ينطوى فيه تحقيق لماضينا نحن القديم وماضى الحضارات الشرقية التى نرتبط بها ومع أهلها الى اليوم وغدا بأشد الروابط : اليس كل ما قبل اليونان أعمال عبید تحت سيطرة الخرافات من أجل منافع لاتعلو على مستوى الحياة اليومية ؟ هكذا يقول الآخذون بفكرة المعجزة الاغريقية فى آخر الأمر . ومرة أخرى يتضمن تحديدنا لموقنا من الحضارة اليونانية موقفا من المعجزة الاغريقية ومن انفسنا فى ماضينا : فهل نأخذ بذلك الافتراض ؟ ان من يقولون بالأخذ عن اليونان تراثا انسانيا ونموذجا خالدا مضطرون الى الأخذ به ، والأخذ

به يعنى على الفور تحقير الذات فى هيئتها العتيقة وطعنا
فى قدرتها فى الحاضر وتلويتها لجوهرها فى المستقبل .

ويلمح القارئ من بين كل السطور السابقة أن الأفق
الفعلى للبحث انما هو موقفنا من الحضارة الغربية التى
تريد أن تعتبر أن اليونان هم سلفها الأعظم المباشر .
والواقع أن تساؤلنا : ماذا نريد لأنفسنا فى المستقبل انما
هو الوجه ، وظهره هو التساؤل عن موقفنا من الغرب بما
يتضمنه من تحديد موقف من الثقافة اليونانية .

هذه هى الأطر الخمسة أو الستة التى يتحرك بالاضافة
اليها موضوع هذا البحث ، وهو مكان الثقافة اليونانية
القديمة فى الوعى المصرى الحديث .

ونتوقف قليلا ، قبل عرض المواقف ، عند بعض
التحديات وعند بعض الاشارات المنهجية . وذلك أننا
سوف نستخدم كثيرا اصطلاحات من مثل « الفكر »
و « الثقافة » و « الحضارة » فضلا عن « اليونان »
و « نحن » . أما الفكر فاننا نقصد به : « مجموعة
التصورات المتسقة التى تقدمها حضارة ، أو فرد ما ، عن
العالم والانسان والمجتمع والاتجاهات المصاحبة لتلك
التصورات » ، ومن المفهوم أن الفكر ، كنتاج ، هو بناء
فوقى تنتجه حضارة ما ، وهو النشاط النظرى للانسان
بازاء العالم والآخرين ، من بين أنشطة ثلاثية : المجابهة

والمعرفة والعمل ، وهو ما يؤدي الى موقف منظم للانسان
بازاء الطبيعة والآخرين . ونقصد بالثقافة : « مجموعة
النظم والقيم والأفكار والمعتقدات والفنون التي ينتجها
مجتمع ما » . وأحيانا ما نستخدم الحضارة مكان « الثقافة » ،
والأولى أعم ، وتضم الى جانب عناصر الثقافة المذكورة
تلك العناصر المادية التي تكون البنية التحتية التي تقوم
عليها الثقافة . ونقصد باليونان تلك الأمة المعروفة في وقت
ازدهار حضارتها القديمة ، أى ما بين القرن السادس
والقرن الثالث ق.م . على الأخص . أما « نحن » فإنا
نقصد بها ، أولا ، الكيان المباشر الذي ننتمى اليه ، وهو
كيان مصر ، ذات الوجود الحى المتجدد منذ قديم ، ولكنها
أيضا مصر متعددة الانتماءات ، ولذلك فإنا نقصد بها ،
ثانيا ، ذاتا هى بسبيل التكون ، أى ذات الثقافة العربية
الجديدة التي تنطلق ابتداء من الاشتراك فى اللغة وفى
الارادة وفى المصالح المشتركة ، من فوق أرضية تاريخ
مشترك ، والتي تتوجه نحو مستقبل مشترك موحد .

من جهة أخرى ، فإن بعض الاتجاهات المنهجية هى
التي تسند هذا الضرب من البحث الذى سنقوم به فى خلال
هذه الصفحات ، ونظن أنها لازمة أيضا لحسن تفهمه عند
القارئ الكريم . ونؤكد على اتجاهات ثلاثة على الأخص :
الجسارة ، رفض الوضوح الزائف ، روح النقد الدائم .
ذلك أننا نرفض لنا وللآخرين روح التقليد والسكون ،

ونرفض أن يكون هناك فى عالم الفكر وعالم السياسة وعالم التوجهات القومية على السواء صنم أو أصنام يروض الخاضعون على عدم المساس بها ولو على سبيل الأحلام والتهيئات ، ونؤكد فى المقابل على روح الجسارة التى تدفع الى اقتحام كل الميادين وتقلب كل الفروض ، ولا ترضى الا بالاقتناع العقلانى الذاتى المبني على اختيار حر، بما فى ذلك الاقتناع والاعتناع المضاد . ولعل من أسس روح الجسارة اتجاهها نفتقراليه كثيرا وعند الأكثرين، هو ذلك الاتجاه الجدير بالروح الفلسفية الأصولية على الحقيقة ، والمتمثل فى رفض الوضوح الزائف ، أى رفض قبول القائم لا لشيء الا لأنه قائم وحسب ، بدون جسسه واختباره والتأكد انه يقوم على أساس صلد وليس على أوهام نشرتها سلطة هذا أو ذاك ، وأنه ابتنى على علم وتدبر وتيقن وليس على جهل وتسرع مذنبين . أخيرا فاننا نقصد بروح النقد الدائم الاحتفاظ بحرية إعادة النظر فى المواقف والاختيارات بلا هوادة ولا سكون ، سواء مواقف الذات واختياراتها أم مواقف الآخرين واختياراتهم ، وذلك سلبا وإيجابيا على السواء ، أى بما يؤدي الى نبذ ما أخذ به أو الأخذ بما لم يؤخذ به من قبل .

**ثانيا : مداخل الوعي المصرى الحديث الى الثقافة اليونانية
(جهات النظر ومدخلان ومرحلتان) :**

لايزال دخول عناصر من الثقافة اليونانية العتيقة الى العالم الاسلامى القديم موضوعا يحتاج الى عشرات

المشاركات ، وهو لا يزال فى بداياته الأولى ، واهتمام الغربيين به هو الظاهر ، واهتمامنا ، نحن خلف الحضارة الاسلامية القديمة ، به لا يكون الا عارضا وفى تسرع ، وربما كان السبب ضرورة المعرفة الجيدة بأمور الحضارتين وهو غير متوفر الا عند اقل الأقلية ، وربما كان السبب هو ضعف الحس بأهمية دراسة التفاعلات بين الثقافات ، أو غير هذا السبب وذاك . ونكتفى فى هذا المقام بإشارة عامة ، تقوم فى أننا يمكن أن نقول ان العقل الاسلامى لم يستطع أن يدرك كنه الثقافة اليونانية ، وما كان بمستطيع على كل حال ، وان سوء فهمه وقصور هذا الفهم بارزان حتى فى الميدان الذى اقترب فيه أكثر من غيره من اجتلاء حقيقة مواقف اليونانيين ، ألا وهو ميدان الفلسفة . وعلى كل حال فان هناك مدخلين كبيرين دخلت منهما العقول الاسلامية الى أبواب الثقافة اليونانية ، وهما على التوالى زمنيا : مدخل المنفعة ، مع الاهتمام بالطبىات والطبىعيات اليونانية ، ثم مدخل « الحقيقة الواحدة » ، أى ظن أن الحق واحد عبر عنه الوحى وعبر عنه العقل ، فهو واحد وان اختلفا فيما بينهما فى طرائق التعبير ، وفى هذا المدخل ما فيه من اخلاص فى المعتقد الفلسفى ، ولكن فيه ما فيه أيضا من ارادة بعض ممن غلبهم الاسلام وأرادوا مع ذلك أن يتغلبوا عليه ، ارادتهم فى « الالتفاف » حوله بوسيلة تلك المعرفة الغريبة . وما أردنا أن نثير هنا هذا الموضوع بقصد

استيفائه ، ولكن لنضع جدارا خلفيا نقابل عليه المدخل الحديث للوعى المصرى الى الثقافة اليونانية التى ستبدو دائما ، وفى نفس الوقت ، وكأنها « شىء عرفناه » و« شىء عرفناه ولم نعرفه » .

ونبدأ هنا أيضا بإشارة تجميعية الى ما نسميه « جهات النظر » الى الثقافة اليونانية ، ونكتفى بالوضع السريع ، ولا بد للدراسة التفصيلية التاريخية للموضوع من أن تتوقف طويلا لاستجلاء المضامين والارتباطات والمغازى . ذلك أننا يمكن أن نقول أن العقل المصرى الحديث أخذ فى التعرف ، أو فى إعادة التعرف ، على تراث الحضارة اليونانية من خلال « جهات النظر » التالية :

(١) ادراك الآخر غير المسلم ، وهذه الجهة تبدأ منذ الحملة الفرنسية ، ومنذ أن رأى القاهريون نساء الفرنسيين حاسرات الوجوه « لايسات الفستانات » ، ورأوا أيضا آلاتهم العلمية ، بعد أن سمعوا ضربات مدافعهم ، وخبروا بعض تنظيمااتهم ، وتمتد الى اليوم وغدا ، لأن الغرب لا يتركنا لشأننا ، ونحن مضطرون للأخذ بأدواته لرد عدوانه ، وملزمون بمعرفته ، على مستوى القادة منا ، لتحضير مستقبلنا ومستقبل الانسانية الجديدة (بالمعنى الحق لأول مرة) . وفى اطار هذه الجهة للنظر يدخل اكتشاف الغرب واكتشاف ، أو إعادة اكتشاف ، اليونان

والتعرف على حضارات آسيا والدراسة العلمية لقارتنا
أفريقيا في نصفها غير المسلم الى غير ذلك .

(ب) نبش الماضي غير الاسلامى لمصر الشاملة
ومتعلقاته ، ويدخل فى هذه الجهة معرفة مصر القديمة
بأسرها ومصر القبطية ، ومن الطبيعى أن يتصل بهذا كذلك
مصر اليونانية والرومانية ، والانتقال ابتداء من هذا الى
معرفة بالحضارة اليونانية فى ذاتها أمر منطقي .

(ج) العودة الى ممارسة الفلسفة ، بعد الهجوم السننى
الساحق الماحق عليها منذ عصر أبى حامد الغزالى ، وكانت
الفلسفة عند الاسلاميين هى فلسفة اليونان ، والفلسفة
الغربية ، التى يراء اقتناعنا منذ ستين عاما أو تزيد انها
« الفلسفة » بألف لام التعريف ، ترجع ، بقول أهلها
أنفسهم ، الى الثقافة اليونانية .

وهكذا يمكن أن نقول ان تعرف الوعى المصرى الحديث
على حضارة اليونان وثقافتهم يندرج بقدر أو بآخر تحت
جهة أو أخرى من جهات النظر تلك ، والأدق ان نقول انه
يندرج تحتها جميعا بنسب متفاوتة .

على أننا نريد أن نبرز أمرا ذا أهمية ، وهو أن هناك
اختلافا جذريا بين مدخل الفكر المصرى الحديث الى
اليونان ومدخل أسلافنا الاسلاميين القدماء اليهم : فقد

رغب هؤلاء ، أو بعض منهم على الأدق ، فى معرفة اليونان
لذواتهم ، أى أنهم اتجهوا الى اليونان مباشرة (وان كان
ذلك عن طريق وسيط أو وسطاء هم السريان وغيرهم) ،
أما الفكر المصرى الحديث فإنه اتجه الى اكتشاف اليونان
لا لذواتهم ، بل لأنهم كانوا ، فيما يظن الجميع ، على
صواب أو خطأ ، أساس الحضارة الغربية وأساس عصر
النهضة الأوروبية ، والحضارة الغربية هى الشغل الشاغل
للفكر المصرى الحديث ، ان سلبا ، رغبة عنها ، وان ايجابا ،
رغبة فيها . وهذا ما نسميه « المدخل الغربى » الى الاهتمام
بالثقافة اليونانية .

وليس عجبا ، على هذا الأساس ، أن نجد أول كتاب
بالعربية ، على ما نعلم ، مخصص جميعه للحديث عن
أشياء يونانية ، وان كانت سبيلا لعرض أفكار غربية حديثة ،
يدخل الى عالم اليونان من خلال عالم الفكر الغربى
الحديث . ذلك هو كتاب رفاة الطهطاوى « مواقع الأفلاك
فى وقائع تليماك » ، المنشور فى المطبعة السورية ببيروت
عام ١٨٦٧ م . وهو ترجمة عن الفرنسية لرواية فنلون
(Fénélon) الشهيرة « مغامرات تليماك » ، وقام بها
استاذنا اللوذعى فى اثناء منفاه بالسودان ، فى عهد عباس
وبأمر منه ، والذي استمر عامين ، وأراد بها رفاة أن
يشغل نفسه وأن يعزيها بهذه الترجمة التى خرجت فى
حوالى ثمانمئة صفحة ، ومن المفهوم أن أفكار الكتاب انما

هى أفكار صاحبه فنلون (١٦٥١ - ١٧١٥ م) وان
وضعها فى اطار يونانى هو مغامرات تليماك ، ابن
أوديسيوس بطل حرب طرواده . ويثبت مانسميه « المدخل
الغربى ، الى الاهتمام باليونان ماجاء فى مقدمة رفاة
لترجمته حيث يقول : « ولما جاء الافرنج يحذون فى
آدابهم حذو اليونان ، اتخذوا الخرافات اليونانية قدوة فى
ذلك وأسوة ، وألفوا فيها تآليف تسمى الميثولوجيا ، ووقائع
تليماك مشحونة بهذه الأشياء ، وما فيه من الآداب مبنى
على الآداب اليونانية » (١) . وما ترجمه رفاة الا لضمونه
الغربى الذى يريد تعريف قراء العربية به ، فهو « مشتمل
على الحكايات النفائس ، وفى ممالك أوربا وغيرها عليه
مدار التعليم فى المكاتب والمدارس » (٢) . ونفس هذا الموقف
نجده وراء ترجمات أحمد لطفى السيد لبعض كتب أرسطو،
فيقول فى الدافع الى ما فعل : « لما كنت مديرا لدار الكتب
المصرية تحدثت مع بعض أصدقائى فى وجوب تأسيس
نهضتنا العلمية على الترجمة قبل التأليف كما حدث فى
النهضة الأوربية ، فقد عمد رجال هذه النهضة الى درس
فلسفة أرسطو على نصوصها الأصلية ، فكانت مفتاحا
للتفكير العصرى الذى أخرج كثيرا من المذاهب الفلسفية
الحديثة » (٣) . وهكذا ، فان « أستاذ الجيل » ، على ما
سمى أحمد لطفى السيد ، والذى صرح تصريحا بأن
الأوربيين هم « أساتذتنا » ، يجد أن النهضة الأوربية
والمذاهب الفلسفية الغربية تقوم على اكتاف أرسطو

واليونان ، فلنتجه اليهم كما اتجه اساتذتنا ، ولكي نفهم المفتاح الذي اخرج فلسفات الغرب التي سوف يأخذ ببعضها « فيلسوف الجيل » . (ولا نناقش صحة مايقوله احمد لطفى السيد ، فكلامه فى الواقع لا يتطابق والتاريخ) .

أما المدخل الثانى الى الاهتمام بالثقافة اليونانية فهو مدخل طريف لا يكاد يخطر على البال للموهلة الأولى ، ولكنه يشترك مع المدخل الغربى فى أنه هو الآخر غير مباشر، ذلكم هو ما نسميه المدخل الاسلامى ، وهو على مستويين: مستوى النموذج ومستوى الأهمية التاريخية . أما مستوى النموذج فنقصد به قولاً واتجاهاً راج منذ العشرينات من القرن الميلادى الحالى ، ومفاده أن أحد أسباب ازدهار الثقافة الاسلامية هو أخذها عن اليونان ونقلها لعلومهم وفلسفتهم، ومهما يكن من مصادر هذا الاتجاه عند المفكرين المصريين وعند المستشرقين الغربيين ، ومهما يكن من صحته وخطئه، فإنه سكن فى العقول أن ثقافة اليونان جديرة بأن « تحدث » نهضتنا الجديدة كما « سببت » نهضتنا الاسلامية التليدة ، وأضافوا ، توكيدا وإيقانا ، بأنها كانت أيضا السبب فى النهضة الأوربية المعروفة ، وهكذا تظهر الثقافة اليونانية عنصرا خالدا دائما الحقيقة يخرج ثمراته فى كل الأجواء وفى كل حين . ويظهر هذا كله فى نص نكتفى به فى هذه العجالة ، وهو يلى مباشرة ما اثبتناه من حديث احمد لطفى السيد الذى يأخذ بالقضية التى تجعل من الرجوع

الى نصوص اليونان علة للنهضة فى أوربا ، وهاهو يكمل فيشير الى القضية الأخرى : « ولما كانت الفلسفة العربية قد قامت على فلسفة أرسطو ، فلا جرم أن آراءه ومذاهبه أشد المذاهب اتفاقاً مع مألوفاتنا الحالية ، والطريق الأقرب الى نقل العلم فى بلادنا وتأقلمه فيها ، رجاء أن ينتج فى النهضة الشرقية مثل ما أنتج فى النهضة الغربية » (٤) . ويرى القارىء أن هذه السطور تجمع ما بين القضيتين معاً . (ومرة أخرى لا نناقش صحة ما يأخذ به أستاذنا ذلك الجيل) . وهكذا كانت حالة الثقافة الاسلامية نموذجاً لضرورة تتمثل فى الرجوع الى اليونان أول كل تسيء من أجل أحداث نهضة شاملة علمية .

أما المستوى الآخر ، مستوى الأهمية التاريخية . فان العقول المصرية التفتت اليه فى نفس الوقت المشار اليه ، وتحت تأثير مباشر هذه المرة من دراسات المستشرقين ، حيث دخلت حديثاً فكرة دراسة « الحضارة » ككل كمدخل عام لدراسة كل شىء ، وبدأ الانتباه الى مشكلة الصلة بين الحضارة الاسلامية والحضارات الأخرى ، وعلى الأخص حضارة الفرس وحضارة اليونان ، ولكن هذه الأخيرة فازت باهتمام أعظم من قرينتها الفارسية (وتفسير هذا أمر جدير بالدراسة لذاته) ، وتوجهت الأنظار الى دراستها من وجهة الأهمية التاريخية هذه المرة ، أى من حيث انها كانت رافداً للحضارة الاسلامية ، فوجب معرفتها على نحو دقيق ،

وذلك مساهمة في دراسة الحضارة الاسلامية ذاتها . وتحتل مجموعة كتب الأستاذ أحمد أمين ، وعلى الأخص « فجر الاسلام » الذى صدر فى عام ١٩٢٩ م . ثم « ضحى الاسلام » بأجزائه الثلاثة ، مكانا مرموقا فى هذا الاطار . فيقول طه حسين فى مقدمة الكتاب الأول عن القضية الأولى : « كل ما يصلح موضوعا للدرس فى هذا الكون . . لاينبغى أن ينظر اليه على أنه منقطع الصلة عما حوله ، وانما هو جزء من كل ، وليس الى معرفة الجزء سبيل اذا لم يعرف الكل ، أو اذا لم يعرف مايحيط به من الأجزاء الأخرى على أقل تقدير » (٥) ، ولهذا فانه يؤكد على أهمية ما صنعه أحمد أمين حين وصل بين الثقافة الأدبية والثقافة الدينية والفلسفية وصلا متينا (٦) ، وذلك فى اطار دراسة عناصر الحضارة الاسلامية ذاتها . ومن جهة أخرى يؤكد أحمد أمين نفسه على ظاهرة الاتصال بين الحضارات ، فيقول : « الثقافة اليونانية ، كالثقافة الفارسية ، كانت مبنوثة فى البلدان المختلفة ، وكان منسألها منهم (أى المسلمين) قريبا » (٧) . ويضيف : « اذن ، فمن الخطأ البين الفكرة الشائعة أن العرب والمسلمين جميعا كانوا بمعزل عما حولهم من الثقافات والأديان الى العصر العباسى ، وأن آراءهم وآدابهم وعلومهم نبتت وحدها من عقول عربية ، من غير أن تتغذى بغيرها » (٨) ، بل ويتحدث عن اللقأح والتوليد بين الثقافات فى « ضحى الاسلام » (٩) . ويقول فى أول الفصل الثالث من الجزء الأول من نفس هذا

الكتاب الأخير ، وبعد الحديث فى فصلين عن الثقافتين الفارسية والهندية : « إذا نحن وصلنا الى اليونان ، فقد وضعنا ايدينا على كنز لا يفنى ، وثروة لا تقدر ، وغنى عظيم فى كل ماينتجه العقل والعاطفة والذوق » (١٠) ، ويلخص : « كان لهذه الثقافة اليونانية أثر كبير فى المسلمين ، ومما زاد فى اثرها أن اتصال المسلمين بها صاحب عصر تدوين العلوم العربية ، فتسربت الثقافة اليونانية اليها ، وصبغت صبغة خاصة ، كان لها تأثير كبير فى الشكل وفى الموضوع » (١١) . ونعقب على هذا كله بشيئين : الأول ، أن دراسة الحضارة على هذا النحو ابتدأت فى مصر ، على ما نعلم ، فى هذا الوقت ، وليس قبله ، بل ان هذا النوع من الدراسة حديث فى الغرب ذاته ، ولايتقدم على أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، ولعله افتتح بكتاب بوركارت (J. Burckhard) الشهير عن « الحضارة فى ايطاليا فى وقت عصر النهضة » ، وبالتالي فان كتب أحمد أمين تمثل نقطة تحول فى مجرى الدراسات الاسلامية الحديثة منذ مبدئها . الأمر الثانى ، أن نتيجة هذا التحول فى منظور الدرس ادى الى زيادة الاهتمام بمعرفة الحضارة اليونانية فى ذاتها وككل ، وتطبيقا لمبدأ معرفة الجزء من خلال الكل الذى أشار اليه طه حسين .

هذان اذن هما المدخلان الى الاهتمام باعادة اكتشاف الثقافة اليونانية ، ويمكن أن نظن ، غير مكذبين ، وفى

انتظار دراسة وثائقية دقيقة شاملة ، أن العلامة الكبرى في هذا التطور هو أحمد لطفى السيد وفي منتصف العشرينات على الأخص ، وتبعته في هذا مدرسته ، التي أهم أعضائها طه حسين نفسه . وهكذا يمكن أن نقول أن هناك حتى الآن مرحلتين في حركة انتباه الوعي المصرى الحديث الى الثقافة اليونانية : الأولى تمتد من الحملة الفرنسية الى ما قبل ظهور أحمد لطفى السيد على مسرح الفكر المصرى (فى عام ١٩٠٧ ، سنة ظهور جريدة « الجريدة ») ، والثانية تبدأ مع أحمد لطفى السيد وتمتد الى اليوم . ونتمنى أن نشهد بداية مرحلة ثالثة يتعدل فيها منظور الرؤية على النحو الذى سوف نقترحه فى القسم الأخير من هذه الدراسة .

ثالثا : هيئة الثقافة اليونانية فى مرآة الوعي المصرى الحديث :

كان الغرب ، الى ما قبل دقات مدافع بوناپرت فى معركة اميابة ، هو الآخر المطلق ، هو الخصيم الذى لا يستحق الاهتمام ، هو « الكافر المعاند » ، على ما استمر يقول رفاة ثلاثين عاما من بعد ذلك ، وتغيرت أمور ، وجاء الاحتلال البريطانى لیتوج انتصار الحضارة الغربية الأقصى ، ولترتفع فى نفس الوقت على التقريب صيحة الاحتقار المقابل : « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا »

عند شاعر التفوق الانجلو سكسونى كبلنج • فماذا كان رد الفعل عندنا ؟ قد توافق أو لاتوافق ، قد تحزن أو قد لاتتعجب ، فان الاجابة كانت طلب الاعتراف من ذلك الآخر القوي، والذي أصبح النموذج والقذوة • ويمكن أن نضعها، تلك الاجابة ، فى عبارة فيها بعض المبالغة لكنها لاتبتعد الا قليلا عن الواقع النفسى والعقلى (المستمر الى اليوم ولكن على نحو مقررز وحتى فى صميم تفاصيل الحياة اليومية) ، وتقول : « بل نحن منكم » ، وقد سبق لنا اثبات قول أحمد لطفى السيد حول تلمذتنا على الغرب ، وفى نفس هذا الاتجاه سيستمر طه حسين وكتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » على وجه الخصوص • وحيث ان الغرب هو استمرار لليونان ، فان علينا أن نأخذ بانتاج الثقافة اليونانية الخالدة لنجعله جزءاً من تراثنا ، وعماداً لثقافتنا • وفى هذا الاطار يوضع اهتمام طه حسين الشديد بتأسيس الدراسات اليونانية واللاتينية (المسماة أحياناً بتسمية تحتاج الى تعليق طويل ، وهى « الكلاسيكية » فى الجامعة المصرية •

ويهمنا الآن أن نمضى مباشرة الى هذا السؤال : كيف نظر المصريون فى العشرينات وما تلاها الى الثقافة اليونانية والى اليونان ؟ والاجابة هى أنهم أخذوا عن الغرب تصويره « الكلاسيكى » عن الحضارة اليونانية ، كما حدده جوته ومعظم القرن التاسع عشر الميلادى ، أى التصور

التمجيدى لليونان ، الذى يجعلهم أمة العقل والحسنة
والفردية ، لكى نقتصر على أبرز القيم وأهمها ، وما عداها
هو نتيجة لها . وقد كان من الطبيعى أن يكون هذا هو
الحال ، لأن الصورة الأخرى عن اليونان ، والتي كان
الغرب يبدأ فى تركيبها عن اليونان منذ أواخر القرن التاسع
عشر الميلادى ، ونتيجة لأبحاث نيتشه الالماني وفريزر
(Frazer) الانجليزى وغيرهما من الكتاب الباحثين
وعلماء الانثروبولوجيا ، هذه الصورة الأخرى ، التي
تظهر الجانب اللاعقلى والمظلم فى الروح اليونانية ، وهو
الذى أنتج الديانات السرية والكوميديا ، لم تكن قد وصلت
بعد أصداؤها الى المفكرين المصريين ، وما كان لهم أن
يعبأوا بها وهى لم تزل بعد صرخة فى واد ، بل تستطيع
أن تقول أن التصور التمجيدى للحضارة اليونانية لا يزال
هو السائد والمسيطر بأحكام على دراسة تلك الحضارة
وتدريسها فى المعاهد العلمية على اختلاف درجاتها . فى
مصر ، الى اليوم .

فما هى عناصر تلك النظرة الى الثقافة اليونانية والى
الانسان اليونانى ، كما وضعها زارعوها فى مصر الحديثة ،
وكما استمر عليها المفكرون والكتاب والأساتذة
الأكاديميون ؟

فيما يخص النظرة الى الثقافة اليونانية ، فإنه يمكن
تجميع عناصرها فيما يلى :

- فهى ، أى ثقافة اليونان ، بداية الانسانية الحقة .
- وهى ثقافة العقل والوضوح .
- وهى ثقافة خالدة تتعدى مكانها وزمانها
المخصوصين .
- وهى لهذا أساس العالمية فى الفن والفكر والعلم .
- وهى لهذا كله منبع مستمر ونموذج دائم واجب
الاحترام .

وأما عناصر النظرة الى الانسان اليونانى ، التى
نشرتها مدرسة أحمد لطفى السيد ، فيمكن أن تصاغ على
النحو التالى :

- اليونانى يمثل الانسانية الكاملة .
- وهو نموذج الانسان الخلاق .
- وفيه تتجسد قيمة الحرية .
- وتتجسد فيه كذلك قيمة الفردية .
- وهو الانسان العقل ان أمكن استخدام هذا
التعبير .

ولن نفصل فى هذا المقام فى هذه العناصر أو تلك
لأن التفصيل فيها يحتاج الى أضعاف هذه الدراسة الحالية،
ولعلنا نعود الى ذلك فى موضع آخر .

وقد سبق أن أشرنا الى بداية النظرة التمجيدية لليونان عند أحمد لطفى السيد ، وهى نظرة انتشرت ، واعتبرت وكأنها مبدأ مقرر عند كل من ساهم فى الثقافة المصرية الحديثة على الطريقة الجديدة . ولعلها بلغت أوجها عند دارسى الفلسفة على الأخص . فانظر الى الدكتور عبد الرحمن بدوى فى تصديره شبه الشاعرى أكتابه « ربيع الفكر اليونانى » : « هاهنا معبد الروح ، قطوبى للداخلين ، وهاهنا ميلاد العقل ، فاهلما نحتفل به يامن بالعقل تؤمنون . هلموا ، فهنا ، فى لحظة قدسية عالية ، اهتزت الروح الانسانية لأول مرة هزة الخلق ، فانتفض عنها جنين العقل ، وبالعقل كان الانسان الأعلى . » هنا أتدياء العقل الأزلى الخالد ، أرسلهم فى ساعة السرور المقدس ، كى ينفخوا فى الانسان روح الحرية والنبيل والقداسة ، روح الحق والخير والجمال . ثم يقول، عن السفسطائيين : « هنا أزمة ، أزمة الانسان وقد اكتشف لأول مرة نفسه . » فالآن ، لتخرج الروح اليونانية ، بل الروح الانسانية بأسرها ، من ربيع نموها ، كى ترتفع الى صيفها وتمام نضجها . فقد هداها السفسطائيون الى الانسان . قائلين : من هنا الطريق » (يسجل المؤلف تاريخ ديسمبر سنة ١٩٤٢ وقتا لكتابة تصديره ، والتخطيط تحت الكلمات من فعلنا نحن) .

ونفس هذه النغمة نجدها فى مقدمة لكتاب آخر يقول فيها مؤلفه : « نحن نؤرخ فى هذا الكتاب لنشأة الفكر الفكر الفلسفى فى اليونان ، كيف عالج العقل الانسانى ، لأول مرة فى تاريخ البشرية ، ومتمثلا فى أمة اليونان ، مشاكل الوجود .. » . ثم يقول : « على يد هؤلاء الأوائل من فلاسفة اليونان ، انعكس العقل الانسانى على ذاته ، ورأى أن يتلمس الحقيقة فى ذاته » ، ليخلص الى القول : « فهؤلاء المعلمون الأول .. مشيخة الفلسفة القدامى ، ورواك العلم الطبيعى والميتافيزيقى والرياضى ، وسدنة العقل ومشيخة الفكر » (على سامى النشار ، « نشأة الفكر الفلسفى عند اليونان » ، الطبعة الأولى ١٩٦٤ م ، الاسكندرية ، مقدمة الكتاب بغير ترقيم) .

ونتساءل الآن : فيم تجسد هذا الاهتمام بالثقافة اليونانية ؟ ولن نعرض هنا بالتفصيل للشكل التنفيذى لترجمة ذلك الاهتمام بالوقائع ، ونكتفى بالإشارة الى رؤوس الموضوعات : فعلى رأس قائمة الاجراءات التنفيذية يقف انشاء قسم الدراسات اليونانية واللاتينية بالجامعة المصرية ، وبعده تقف حركة ترجمة النصوص التى بدأها ، على نحو أو آخر ، أحمد لطفى السيد وطه حسين أنفسهما ، وبعدها نجد حركة نشر الكتب فى موضوعات الحضارة اليونانية ، ثم نشر المقالات فى المجلات والصحف السيارة .

وانما نجيب هنا على ذلك السؤال السابق
مفهوما على أنه يتناول « مواطن » الاهتمام الأقوى
والأضعف : وهنا يمكن أن نحدد ميادين الاهتمام كما تجلت
عند جمهور المثقفين على النحو التالي بادئين بما احتل
درجة أعلى فنزولا حسب الدرجات :

- الفلسفة

- الأدب

- التاريخ والسياسة

- الفن

- الدين

ولن نستطيع تفصيل انقول في ذلك هنا ، لأن الموضوع
لايستلزم أقل من عرض كل انتاج الدراسات اليونانية في
مصر في الستين سنة الأخيرة على الأقل .

ولم نشر في هذه القائمة الى دراسة اللغة اليونانية ،
لأنها موضوع أكاديمي ، ولاتهمنا هنا الدراسات الأكاديمية
بذاتها ، الا اذا خرجت الى خارج أسوار الجامعة وشاركت
في صنع الوعي العام . ونقول بصفة عامة ان الدراسات
الأكاديمية للحضارة اليونانية وتلك الرومانية لم تقم
بواجبها الذي كان مرجوا منها ، لا في اطارها التخصصي
ولا على مستوى الوعي العام ، حيث لم تتبع خطة كانت

تفرض نفسها ، وتقوم فى ترجمة النصوص عن أصولها اليونانية واللاتينية على نحو شامل ، وفى مسانديتها بدراسات تاريخية متتالية حول شتى جوانب الحضارة اليونانية وتلك الرومانية ، ولولا جهد طه حسين نفسه وانتاج بعض تلامذته فى هذين الاتجاهين ، لبقى الميدان محصورا فى عدد من الترجمات عن اللغات الأوربية ، قام بها بعض المتخصصين وبعض الهواة ، واستمر الحال كذلك حتى منتصف السبعينات ، حين بدأت حركة جديدة من تلامذة الجيل السابق، الذى تتلمذ هو نفسه على طه حسين. تعلن عن نفسها ، ولكن على نحو يميل الى الفردية ويفتقر الى الخطة طويلة النفس (ويدخل فى هذا الاطار جهدنا المتواضع فى ترجمة أفلاطون عن اليونانية مباشرة ، وقد ترجمنا له ست محاورات بالفعل) .

ونختم هذا القسم الثالث بفكرتين هامتين . الأولى أن بحث الاهتمام بالثقافة اليونانية واعادة اكتشافها ونشر مآثرها يعد ضمنا تعبيراً ، أو هو وسيلة للتعبير غير المباشر ، عن اتجاه يريد أن يؤكد على أهمية الفكر ، وذلك فى اطار خلفية كانت لاتعنى الا بالدين والسياسة والشعر، وواقع لايهتم الا بتسيير أمور الحياة اليومية ولايتطلع الى ما هو أعلى .

الفكرة الثانية ترتبط بالأولى وتشير الى اتجاه أعم ، وهو يتلخص فى أن بحث عناصر الثقافة اليونانية كان اجراء « تكتيكيا » كما يقال فى لغة السياسة والحرب ،

وذلك كجبهة ينشر من خلالها أصحاب هذا الاتجاه أفكارهم التي تتعدى محض الاهتمام بالثقافة اليونانية الى ما هو اخطر واهم واعم ، الا وهو وضع أسس لعصر التنوير العقلي ، وذلك بقصد التحرر من أسر التقليد بأنواعه ، مستعينين في هذا بأمر سيصعب على أصحاب التقليد أن يعارضوه ، لأنه سبق أن تواجد في الحضارة الاسلامية التقليدية ، الا وهو الأخذ ببعض عناصر الثقافة اليونانية (على نحو ماظن هؤلاء وأولئك) • ومما هو جدير بالانتباه أن الموجة الأولى ، والأكبر ، للدعوة الى الأخذ بالروح اليونانية تتماصر مع عصر التوجه الليبرالى والتنويرى فى المجتمع المصرى الحديث (١٩٢٣ - ١٩٥٢ م) •

رابعاً : نقد التوجهات السائدة والاشارة الى موقف جديد

نود أولاً أن نضع فى اقتضاب شديد الاطار العام للموقف الذى نقترحه بازاء الثقافة اليونانية القديمة • فنحن نرفض فكرة « الانسانية » الواحدة ، لأن القائم بالفعل انما هو وحدات أهمها الأمة ، والأهم تصنع حضارات ، ولا يوجد « انسان » واحد مزعوم ، لأن الانسان القائم بالفعل يتكون من عنصرين متكاملين لا ينفصلان : تكوين طبيعى واطافة ثقافية تختلف من حضارة الى اخرى ، ولاشك أن التكوين الطبيعى مشترك بين البشر جميعاً ، ولكنهم لا يتشابهون كلهم ثقافياً ، ونرى أن الثقافة

من مجموع البشر ، أو من التشابه فى التكوين الطبيعى وحده ، الى مفهوم مزعوم عن « الانسان » العام أو « الانسانية » هى نقلة غير مشروعة ، وان كان هناك مكان لانسانية واحدة فى المستقبل حين تسود حضارة واحدة وثقافة واحدة على ظهر الأرض ككل . ولكن هذا المستقبل لايزال بعيدا بعيدا .

كذلك فانا نرفض فكرة « العقل » الواحد ، لأن العقل الطبيعى ، وهو أحد عناصر التكوين الطبيعى المشترك بين بنى البشر ، ليس كل شىء ولاهو حتى أهم شىء ، لأن الأهم والحاسم انما هو التكوين الثقافى لذلك العقل الطبيعى الذى هو اقرب مايكون الى الامكان الخالص أو المادة « الخام » . وهكذا فان مرجع العقل ، وما ينتجه من علم وفكر ، انما هو الثقافة ، وهناك «عقل» بعدد الثقافات ، وبالتالي فما ينتجه عقل ثقافة أمة ما هو بالضرورة مختلف عن عقل ثقافة أخرى ، ولايمكن أن يكون لهذه عقل الأخرى ولا العكس .

ويظهر مما سبق أن الفكر لاينبغى أن يفهم الا فى اطار الثقافة ، والثقافة هى دائما ثقافة أمة بعينها ، فلا يمكن لفكر ثقافة أن يكون لثقافة أمة أخرى ، وحتى اذا ظهر أن هذا « واقع » هنا أو هناك ، مثل أخذ الاسلاميين بفلسفة اليونان ، أو أخذ المصريين الحاليين بمحتويات عقل

الغرب ، فان هذا لا يدل على كبير شيء ، لأنه بمنتهى البساطة « غير مشروع » • وهو واقع فى طريق مسدود ، ومصيره الفشل بالحتم ، كما حدث لمصير الفلسفة اليونانية فى العقل الاسلامى الذى لفظها ، وكما سيحدث بالضرورة لمصير المستورد الغربى فى العقل المصرى حين يصل الى عصر الاستقلال والكرامة • ونحن نفرق هنا تفرقة أساسية بين « ما يخصنا » و « ما يهمنا » ، وسنعود الى هذه التفرقة بعد حين •

وينتج من الاعتبارات السابقة أننا نعتبر الأخذ بالثقافة اليونانية وكأنها تراث عالمى لنا وللجميع ، وانها ينبغى أن تكون موضوعا لدراسة كل من يريد أن يكون ممن يعلمون ، نعتبر ذلك أمرا غير مشروع ، حتى وان ظنه آلاف وآلاف ، وجرت فى اطاره ملايين الصفحات ، وذلك اعتمادا على ما أشرنا اليه من رفض « الانسانية » الواحدة و « العقل » الواحد المزعومين •

ونضيف أن ذلك غير ممكن أيضا ، بعد كونه غير مشروع • فتلك ثقافة ماتت وشبعت موتا ، وتحجرت وأصبحت فى متحف التاريخ ، وكان آخر أيامها تلك السنة ٥٢٩ ميلادية ، حين أغلق الامبراطور يوستينيان آخر المدارس الفلسفية الوثنية فى أثينا • وكل محاولة موهومة « لاهياء » تلك الثقافة هو أمر لا يدل الا على

الجهل العميق بأساسيات الثقافة البشرية . ومن جهة أخرى ،
فإن ثقافة أمة ما هي جزء جوهرى من حضارتها ، كما أن
الفكر جزء جوهرى من الثقافة ، والحضارة دائما هي
حضارة أمة معينة ، وهكذا فلن تأخذ فكرا بغير اخذك
لثقافته وحضارته ، ولن تستطع الأخذ بشىء من ذلك جميعا
الا الأمة المعينة صاحبة الحضارة . وعلى هذا الضوء
نفهم مصير الفشل الضرورى لأخذ بعض الاسلاميين ،
وهم فى النهاية آحاد أو عشرات ، بأفكار من ثقافة حضارة
الأمة اليونانية . ونستطرد لنقول ان الموقف هو هو حتى
لو كانت الثقافتين حيتين فى نفس الوقت أو الآن ، ولا نقول
ما يقول بعض غير المنتبهين : « فى نفس العصر » ، وهو
حال ثقافتنا الوليدة الحالية والثقافة الغربية التى تهدف
الى السلطان الكلى والهيمنة الشاملة ، بل ونذهب الى حد
القول ان العلم الطبيعى الغربى نفسه ليس ، ولا يمكن ان
يكون ، علما كليا عالميا ، لأنه علم ثقافة بعينها هي الثقافة
الغربية ، نقول هذا حتى وان كان يدرس صباح مساء فى
مئات المعاهد عندنا وعلى ملايين التلاميذ والطلاب ،
فالظاهرة الفاسدة فاسدة وغير مشروعة وان قبل بها
الملايين ، أو لم يكن هذا حال كروية الأرض وانبساطها
وحركتها وسكونها وموقعها من الشمس فى وقت ما ؟

فالأخذ بالثقافة اليونانية نموذجا وقرائنا « يخصنا »
أمر غير مشروع وغير ممكن . وهو كذلك أمر خطر يخاف

منه التهلكة ، وهذا للاعتبارات التالية التى نسردها بايجاز
سريع :

١ - فهو مخالف للحقيقة ، وكل مخالفة للحقيقة تبعث
على الخطر .

٢ - وهو حين ينكر اختلاف الثقافات وتمايزها يعتدى
على مبدأ الحرية والمساواة بين الأمم ويقيم
سلطان السيادة والسيطرة والغلبة تحت أسماء
ما لها من سلطان .

٣ - ولأنه يؤدى فى النهاية الى واد ينابيع الابداع
لحضارتنا الجديدة الوليدة ، والتى يمكن ان
يؤمل لها ان تكون داعية الى انقاذ البشرية
(أى مجموع البشر لا أكثر) من جنون محتم
أو عبودية لازمة ان استمرت ظاهرة السيطرة
الغربية عليها .

وقد سبق لنا ان اثبتنا سريعا الخصائص المزعومة
للثقافة اليونانية وللانسان اليونانى القديم ، ونحن لانوافق
على صحتها ، فيما عدا قضية أو قضيتين (الحرية
والفردية) .

وإذا كان لنا أن نضيف شيئاً الى ما سبق ، فهو القول
بأن زعم عالمية الثقافة اليونانية وخلودها وقيادتها الدائمة

للإنسانية انما هو حصان طروادة الجديدة للسيطرة
الغربية .

والآن : ما معنى كل ما سبق وماذا يمكن أن يؤدي اليه
من نتائج فى المنتظر وفى العمل على السواء ؟ هل هى دعوة
جديدة الى غلق الأبواب والنوافذ ؟ هل تغلق أقسام
الدراسات اليونانية واللاتينية بجامعةنا ونحرم تدريس
الفلسفة والأدب والفن بأنواعه عند اليونان ؟ هل نحظر
ترجمة نصوصهم وأى شىء عنهم ؟

كلا بالطبع ، لأن العقل المصرى ، ممثلا وطلبة
الثقافة العربية الجديدة الوليدة ، هو عقل انفتاح دائما حين
يكون مألكا لنفسه أو حين يجتهد لأن يكون كذلك ، وهو
حالنا هذه الأيام . انما الذى نطلبه وندعو اليه هو تحويل
المسار وتغيير النظرة واعادة التقييم . ولن نكرر ما ذكرنا
من اعتبارات نظرية ، وانما نضع الأمر وضعا جديدا حين
نفرق بين « ما يخصنا » و « ما يهمنا » . فالذى يخصنا
هو الذى ينتمى الى امتنا ، والذى يهمنا أو قد يهمنا هو
ما ينتمى الى أمم أخرى وثقافتها . ونسارع ونقول اننا
نضع أمور الحضارتين الغربية الحديثة واليونانية القديمة
فى مقدمة « ما يهمنا » . وذلك لاسباب مختلفة فيما يخص
الحضارتين ، فالحضارة الغربية مما يهمنا ، والى أقصى
حد ، لأنها مصدر عدوان دائم علينا ، والحضارة اليونانية

مما يهمنى ، والى أبعد حد ، لأننا ، فى مصر القديمة ، قد
أثرنا عليها أعظم تأثير حين كانت بسبيل التكون ، كما أن
اليونان غزونا وحكموا مصر لعشرات السنين وأثروا فى
بعض جوانب حياتها وثقافتها ، بالاضافة الى التأثير
العظيم للعلم والفلسفة اليونانية فى الحضارة الاسلامية .
وهكذا فاننا ينبغى أن نهتم بالدراسات اليونانية ، ترجمة
للنصوص وتعريفها بها وتاريخها لجوانب الحضارة الاغريقية ،
على سبيل دراسة الآخر المهم ، وليس على سبيل نقل
لنموذج أو لتراث عالمى مزعوم . هذا هو الموقف المتوازن
الذى ندعو اليه ، وهو يحترم رغبتنا القوية فى معرفة كل
شئ على الاطلاق من جوانب الكون ، طبيعة وبشرى فى
الماضى والحاضر ، ويحترم فى نفس الوقت استقلالنا
وكرامتنا ويوفر الدواعى لقيام ابداع مصرى ، ثم عربى ،
جديد ربما أمكن أن نقول انه لم يكد يبدأ حتى الآن الا على
على هيئة المشيئة ، لأنه ، وتلك قصة أخرى ، سقط فى خلال
الأعوام المائة الأخيرة فى شباك عالمية مزعومة هى فى
الواقع الأداة الفكرية للسيطرة الغربية .

الهوامش :

- (١) « مواقع الافلاك فى وقائع تليماك » ، المطبعة السورية
بيروت ، ١٨٦٧ ، ص ٢٧ .
- (٢) نفسه ، ص ٢٤ .
- (٣) أحمد لطفى السيد ، « قصة حياتى » ، كتاب الهلال ،
فبراير ١٩٦٢ ، ص ١٦٨ .
- (٤) نفس المكان .
- (٥) أحمد أمين ، « فجر الاسلام » ، ص ح من المقدمة .
- (٦) نفسه ، ص ١٠٠ .
- (٧) نفسه ، ص ١٣٢ .
- (٨) نفسه ، ص ١٣٤ .
- (٩) أحمد أمين ، « ضحى الاسلام » ، الجزء الاول، ص ١٦٣ .
- (١٠) المرجع السابق ، ص ٢٥٣ .
- (١١) نفسه ، ص ٢٧٤ .

المحتويات

- مقدمة ٣
- الابداع الفلسفى وشروطه . نظرة الى المحاولات
واستشراف للمستقبل ٩
- أزمة الحضارة الغربية : توصيف وتأصيل ٨٥
- اعانة اكتشاف الثقافة اليونانية فى الوعي
المصرى الحديث ١٤٥

رقم الايداع ١٩٩٢/٥٦١٩

I.S.B.N. 977 — 01 — 3630 — 7 الترقيم الدولي

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

يحاول هذا الكتاب الإجابة عن سؤال . ما الشروط
اللازمة بانواعها لقبام فلسفة بل فلسفات مصريه .
وهو يحتوى على ثلاث دراسات الأولى تعرض
خطوطاً رئيسية لتصور عن ماهية الإبداع قبل
الحديث عن شروط الإبداع الفلسفى ، وتؤتى —
خاصة — على أوهام العائيه ، والعقل الواحد والعصر
الواحد ، باعتبارها جميعاً وسائل لسيطرة الحضارة
الغربية علينا . وفى الثانية محاولة لوقف الأزمه
المستمرة ، ورغم كل مظاهر القوة المزعومة ، لحضارة
الغرب ولردها إلى أصول تفسرها ، كما تتناول الثالثة
تشابك الموقف من اليونان ومن الغرب والتساؤل عن
مستقبلنا عامة .

الكتاب القادم

النماذج البشرية فى السينما
التليفزيونية (دراسة وتحليل)
د . سامية أحمد على

To: www.al-mostafa.com